حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
مجلة علمية محكمة

مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي:

﴿قصة موسى -عليه السلام- مع فرعون أنموذجًا﴾

إعداد

الدكتور/ محمد محمد حسين المتولي

المدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث باللغة العربية:

مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي:

(قصة موسى عليه السلام مع فرعون أنموذجًا)

محمد محمد حسين المتولي.

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، المنصورة، مصر.

البريد الالكتروني: dr.mohamedhesen@gmail.com

المستخلص:

هدفت الدراسة إلى صوغ مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في قصة موسى عليه السلام مع فرعون من قبل ميلاد موسى عليه السلام إلى هلاك فرعون من خلال استنباطها من عرض القصة في سور القرآن الكريم؛ وذلك لشدة التطابق بين قصة موسى عليه السلام وبين ما يعيشه المسلمون اليوم في واقعهم؛ الأمر الذي يدل على ثبات السنن، وتكرار الأحداث.

الكلمات المفتاحية: مظاهر، التدبير، الرباني، التدافع، الإصلاحي، الشأن، الدعوي، قصة موسى عليه السلام، فرعون، أنموذج.

ملخص البحث باللغة الإنجليزية:

The study aimed to formulate aspects of the divine management of the advocacy issue in the story of Moses, peace be upon him, with Pharaoh from before the birth of Moses, peace be upon him, to the destruction of Pharaoh, by deducing it from the presentation of the story in the surahs of the Holy Qur'an. This is due to the strong correspondence between the story of Moses, may God bless him and grant him peace, and what Muslims live today in their reality. Which indicates the stability of the Sunnah and the repetition of events.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الدعاة وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد شاء الله وقدر أن يكون الحق والباطل في خلاف مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ومن ثم فإن العيش مع القرآن الكريم في حديثه عن الأنبياء وأتباعهم من الدعاة المصلحين الذين يحملون لواء الحق في مواجهة الباطل وأهله: هو في الحقيقة مدرسة ربانية عظيمة.

والعيش مع القرآن الكريم وهو يسرد قصة نبي الله موسى عليه السلام سردًا دقيقًا عميقًا؛ فيه هداية وراحة، وبشر وسرور، ونور وحبور.

فما أحرانا – ونحن في هذه الأيام العصيبة التي تكالبت فيها كل قوى الشر على دعوة الإسلام وأمته، وصيح بالأمة الإسلامية من كل جانب، وتداعى عليها الأكلة من كل فج – أن نخترق آلاف السنين؛ لنعيش مع القرآن الكريم في حديثه عن مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في قصة نبي من أولي العزم من الرسل، اهتم القرآن بقصته اهتمامًا كبيرًا؛ لتسليط الضوء على مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي من خلال هذه القصة في هذا الزمن الغابر الغائر، لنأخذ العبرة ونحن في هذا الحاضر العاثر؛ الذي تشابكت فيه بأمة الإسلام حلقات المحن، وتقاذفتها أمواج الفتن: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [سورة الأنعام الآيتان: ٨٩، ٩٠] .

ومن رحمة الله تعالى بالخلق: أن جعل لهم سننًا لا تتبدل ولا تتغير بحال، والعيش مع آيات القرآن الكريم في حديثها عن قصة موسى عليه السلام للوقوف على مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه المرحلة الدعوية الحرجة؛ ليس لمجرد التسلية

والتمتع الذهني البارد، أو الدراسة الأكاديمية المجردة؛ وإنما العيش معها للتفاعل، والبحث عن العظة والعبرة، فسنن الله تعالى في الخلق لا تتغير ولا تتبدل، والتاريخ يعيد نفسه، ولا جديد على الأرض، فما حدث بالأمس يحدث اليوم، والعاقل هو الذي يأخذ العبرة والعظة من أحداث الأمس؛ ليوظفها في أحداث اليوم؛ ومن ثم يستشرف المستقبل، وينظر في المآلات؛ لذا قال الله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٦] . وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١١١] . وما أشبه الليلة بالبارحة.

حد الدراسة:

ليس المقصد من هذا البحث: الدخول في كل التفاصيل والمواقف، ولكن المقصد هو: الوقوف على مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من قبل ميلاد موسى عليه السلام إلى هلاك فرعون وجنوده؛ لأخذ العبرة والعظة.

بواعث الكتابة في الموضوع:

دعتني للكتابة في هذا الموضوع بواعث ذاتية ومحركات موضوعية أعدّ منها، ولا أعدّدها:

(١) قصة موسى عليه السلام لها أهميتها العظمى بالنسبة للنبي ﷺ الذي أنزلت عليه، ولأمته بصفة عامة، وللدعاة إلى الله تعالى المصلحين على وجه الخصوص؛ من حيث: العظة والعبرة، والاهتداء والاقتداء، والحِكم والبصيرة، والأخذ بالسنن، وكيفية التعامل الدعوي مع الصديق والعدو، والطيب والخبيث، وفقه الواقع والتوقع، وفقه المقاصد والموازنات؛ وتنزيل ذلك على الواقع الدعوي بصورة صحيحة؛ ومن ثم فإن دراسة مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في قصة موسى عليه السلام بهذه الطريقة تجعلها حيّة تنبض.

(٢) شدة التطابق بين قصة موسى ﷺ وبين ما يعيشه المسلمون اليوم في واقعهم؛ الأمر الذي يدل على ثبات السنن، وتكرار الأحداث.

(٣) مرجع القصة إلى القرآن الكريم.

(٤) الرغبة في الإسهام بشكل مباشر في معالجة الواقع الدعوي، وإزالة ما يواجه الدعاة من عقبات في طريق الدعوة، وبعث روح الأمل فيهم.

السوابق البحثية والإضافة المعرفية المنشودة:

بعد التقري وتصفّح الموارد: لم أعثر على عمل بحثي مستقل برأسه يُعني بتناول مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في قصة موسى ﷺ مع فرعون؛ وغاية ما انتهى إليه بحثي واطلاعي على دراسات ركزت على غير ما هدفت إليه دراستي من استنباط لمظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في قصة موسى ﷺ مع فرعون؛ ومن ذلك:

- قصة موسى ﷺ مع فرعون بين القرآن والتوراة "دراسة مقارنة"، إعداد: د/ نضال عباس جبر دويكات، أطروحة قدمت لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في أصول الدين، بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، ٢٠٠٦م. تحت إشراف الدكتور/ محمد حافظ الشريدة.

وقد بين فيها الباحث قصة موسى ﷺ مع فرعون في كل من القرآن والتوراة، مقارنًا بين أحداث القصة في الكتابين؛ ومن ثم كثرة التزييف والتحريف في التوراة.

- قبس من دعوة سيدنا موسى ﷺ، إعداد: د/ رامي إبراهيم وجيه سعد، نشر في حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، العدد الثامن والثلاثون، لعام: ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م.

وقد تناول فيه الباحث: نشأة موسى ﷺ إلى بعثته، وأسس دعوته، وموقف فرعون وملئه من دعوته، وموقف السحرة ومؤمن آل فرعون من دعوته، ودعوته بني إسرائيل.

والحاصل أن الإضافة المعرفية المحققة من هذه الدراسة تتضح في: صوغ مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في قصة موسى عليه السلام مع فرعون من قبل ميلاد موسى عليه السلام إلى هلاك فرعون من خلال استنباطها من عرض القصة في سور القرآن الكريم، الأمر الذي لم يكن مقصدًا متشوفًا إليه في السوابق البحثية المذكورة وغيرها، فالإضافة العلمية المحققة من هذا العمل لم يتيسر لمُّها في سابقة بحثية - على حد علمي-.

المنهج العلمي المتبع في الدراسة:

توسل البحث بالمنهجين الاستقرائي والتحليلي؛ فأما الاستقرائي: فانتُحي في تتبع مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في القرآن الكريم، وما ثبت في السنة، وما تركه المتقدمون والمتأخرون من تراث، وما قام به الباحثون المعاصرون من أعمال، وأما الثاني: فانتُحي في تحليل هذه المظاهر، ونقد ما يحتاج إلى نقد من أقوال أهل العلم حول هذه المظاهر.

خطوات العمل:

أما خطوات العمل في هذا البحث فلا تشذُّ عن الإجراءات المتعارف عليها من:

- ضبط، وتوثيق، وتخريج، وعزو إلى الأصول.
- تمييز للراجح من المرجوح.
- شرح للغريب إن وجد.

خطة البحث:

وزعتُ الدراسة إلى: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

- المقدمة: في بيان سياق البحث النظري، واستبيان بواعث التأليف فيه، وإضافته العلمية، ومنهجه المرسوم، وتوضيح خطته.

- التمهيد: ويشتمل على ثلاثة محاور:

* المحور الأول: لماذا قصة موسى عليه السلام؟ .

* المحور الثاني: فائدة تكرار قصة موسى عليه السلام في سور كثيرة.

* المحور الثالث: لمحة عن واقع الأرض قبل وبعد ولادة موسى عليه السلام.

- المبحث الأول: مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من ميلاد موسى عليه السلام إلى عودته إلى أمه.

- المبحث الثاني: مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من بلوغ موسى عليه السلام أشده إلى تكليفه بالرسالة.

- المبحث الثالث: مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من التكليف بالرسالة إلى هلاك فرعون وجنوده.

- الخاتمة: وتتضمن استخلاص أهم النتائج والتوصيات.

والله الحليم الكريم أسأل أن يوطِّئ لهذا البحث أكناف القبول، وأن ينفعني وينفع به، ويسد به فراغًا في مجال البحث العلمي، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

ويشتمل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: لماذا قصة موسى عليه السلام؟

ثمة سؤال يُطرح، وهو: لماذا قصة موسى عليه السلام تحديدًا كنموذج لبيان مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي؟ والجواب عن هذا على النحو التالي:

تحتل قصة موسى عليه السلام في الفكر الدعوي الإسلامي مكانة عظمى، وأهمية كبرى، ومنزلة سامية لا تدانى؛ وذلك لعدة أسباب؛ لعل أهمها ما يلي:

أولاً: موسى عليه السلام أكثر الأنبياء في القرآن الكريم ذكرًا، فقد بسطت قصته في القرآن الكريم بسطًا شبه كامل من قبل ولادته إلى نهاية حياته تقريبًا، فشغلت قصته حيّزًا كبيرًا في كتاب الله تعالى؛ وذلك لما احتوته من دروس دعوية عظيمة، وكيف هيّأ الله تعالى الأسباب للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي لكي يتجاوز المعضلات والمعوقات.

فالقرآن الكريم يذكِّر النبي ﷺ بقصة موسى عليه السلام في مرحلة الدعوة المكية، وكذلك يذكِّره بها في مرحلة الدعوة بالمدينة.

في المرحلة الدعوية المكية: كان حديث القرآن عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه؛ لأن ذلك ما يناسب هذه المرحلة الدعوية الإسلامية في مكة؛ حيث كان النبي ﷺ يواجه أهل الشرك وصناديد الكفر، وعلى رأسهم: فرعون هذه الأمة: (أبو جهل).

وفي المرحلة الدعوية المدنية: كان القرآن الكريم يذكِّر النبي ﷺ - في الغالب - بقصته عليه السلام مع بني إسرائيل؛ لأن ذلك ما يناسب المرحلة الدعوية الإسلامية المدنية؛ حيث كان النبي ﷺ يواجه أهل النفاق من أهل المدينة؛ كرأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي رجع بثلث الجيش يوم أحد؛ مما تسبب في انكسار معنوي للمقاتلين في الجيش الإسلامي مع النبي ﷺ، وموسى عليه السلام ابتلي كذلك بهذا الصنف من المنافقين الذين قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ

وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية ٢٤] .

ثانيًا: التشابه الكبير بين قصة موسى عليه السلام وسيرة نبينا ﷺ:

– فموسى عليه السلام نبي ورسول ومن أولي العزم من الرسل، والنبي ﷺ كذلك.

– الرسالة فيض من الله على من اصطفاه من عباده، وأن رسالة محمد ﷺ كرسالة موسى عليه السلام جاءته بغتة، فنودي محمد ﷺ في غار جبل حراء، كما نودي موسى عليه السلام في جانب جبل الطور، وأنه اعتراه من الخوف مثل ما اعترى موسى عليه السلام، وأن الله ثبته كما ثبت موسى عليه السلام، وأن الله يكفيه أعداءه كما كفى موسى عليه السلام أعداءه[1] .

– وبعث نبي الله موسى عليه السلام بعقيدة التوحيد، شأنه شأن الأنبياء كلهم، –ومنهم نبينا – عليه الصلاة والسلام–، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٩] . فهو الدين الذي ارتضاه الله لأهل الأرض جميعًا، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٨٤] . وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة، الآية: ٣] .

– وبعث نبي الله موسى عليه السلام بكتاب، وهو: (التوراة)، وكذلك بعث النبي ﷺ بكتاب، وهو: (القرآن الكريم)؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآيتان: ١٥٤، ١٥٥] . وقال تعالى: ﴿وَمِنْ

---

(١) "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (١١٨/٢٠)، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأحقاف، الآية ١٢] .

- وبعث نبي الله موسى عليه السلام في أمة كبيرة، وكذلك بعث النبي ﷺ في أمة كبيرة عظيمة؛ لدرجة أن حصل تنافس في ذلك الأمر، -كما حدث في أثناء المعراج-، فقد أخرج الإمام البخاري - رحمه الله - في "صحيحه" في حديث المعراج الطويل، وفيه أن النبي ﷺ قال: «ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ أَبْكِي؛ لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي»(١) .

والمشهد هنا: مشهد غبطة، وليس مشهد حسد بمعناه المعروف، فموسى عليه السلام كان يغبط النبي ﷺ على أن آتاه الله تعالى هذا الفضل الكبير مع صغر سنه، مقارنة بالأنبياء السابقين الذين كانوا يعمرون مع أقوامهم طويلًا، وموسى عليه السلام عانى أشد المعاناة مع بني إسرائيل؛ واستحضر عليه السلام في هذا الموقف مواقف المعاناة والآلام التي عاشها مع قومه؛ فبكى في مشهد يحكمه الغبطة، وليس كما يذهب إليه أصحاب القلوب المريضة والمسالك الملتوية: من أن موسى عليه السلام حسد محمدًا وحقد عليه! .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - في بيانه لذلك: «قال العلماء: لم يكن بكاء موسى حسدًا - معاذ الله - فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج، ح رقم (٣٦٧٤) .

اصطفاه الله تعالى؟ بل كان أسفا على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة؛ بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزم لتنقيص أجره؛ لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه؛ ولهذا كان من اتبعه من أمته في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة لهذه الأمة، وأما قوله: غلام؛ فليس على سبيل النقص؛ بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه، إذ أعطى لمن كان في ذلك السن ما لم يعطه أحدًا قبله ممن هو أسن منه»[(١)].

وفي "الصحيحين" عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ، فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ»[(٢)].

- في سورة إبراهيم عرض الله تعالى لأمر مهم: ففي الآية الأولى من السورة قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [سورة إبراهيم: ١] . وفي الآية الخامسة من السورة نفسها؛ قال الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [سورة إبراهيم: ٥] .

(١) "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، (٧/٢١١)، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" "كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، ح رقم (٦١٦٣)، ومسلم في "صحيحه" "كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، ح رقم (٢٢١) .

- موسى عليه السلام جاهد في سبيل الله تعالى جهادًا عظيمًا؛ مثل: جهاده ضد فرعون وقومه، ومحاولة جهاده الجادة ضد العمالقة الجبارين الذين استحوذوا على الأرض المقدسة وتملكوها؛ إلا أن بني إسرائيل نكلوا عن جهادهم، وخالفوا نبيهم، وتخلفوا عن الجهاد، رغم أنهم عاينوا بأم أعينهم كيف نجاهم الله تعالى من الطاغية الذي سامهم سوء العذاب، وكيف عبر بهم موسى عليه السلام البحر الذي انشق لهم اثني عشر طريقًا، وكيف أهلك الله تعالى طاغيتهم في نفس البحر الذي عبروه، ورأوا كيف تغلب موسى عليه السلام على فرعون وسحرته قبل ذلك، ورأوا المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام، ورغم كل هذا وغيره أبوا أن يدخلوا حربًا مقدسة كانت في صالحهم: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية ٢٤]، والنبي ﷺ عاش حياته كلها مجاهدًا في سبيل الله مدافعا ومنافحًا عن الإسلام.

- في قول الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [سورة القصص، الآية ٢٠] .الْآيَةَ. إشارة إِلَى أَنَّ النبي ﷺ سَيَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ، وَأَنَّ اللهَ مُنْجِيهِ من المشركين الظالمين كما حدث مع موسى عليه السلام ونجاه الله تعالى من المشركين الظالمين لما خرج من أرض مصر إلى أرض مدين.

- موسى عليه السلام هاجر من مصر إلى مدين، ثم عاد إلى مصر مكلفًا بالدعوة إلى الله تعالى، والنبي ﷺ هاجر من مكة إلى المدينة، ثم عاد إليها فاتحا بفضل الله - جل وعلا -، وأصبحت بلده في قبضته، ومكنه الله تعالى من نواصي الضالين.

- موسى عليه السلام ابتلي بالمنافقين - كما سبقت الإشارة إلى ذلك -، مثل: قارون، والسامري، وغيرهما، والنبي ﷺ ابتلي بهم كذلك، بل إن حركة النفاق في المدينة كانت في أغلبها صناعة يهودية؛ فهم الذين صنعوها، ووجهوها ضد النبي ﷺ؛ بغرض هدم الإسلام.

ثالثًا: اتخاذ النبي ﷺ موسى عليه السلام قدوة حسنة، ونموذجًا يحتذي به في الدعوة إلى الله

تعالى؛ وذلك لصبره وجلده وقوة تحمله، وما وجده من معاناة أثناء معالجته بني إسرائيل، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَغَضِبَ، حَتَّى رَأَيْتُ الغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»(١).

رابعًا: صدق الإخاء بين النبيين الكريمين - موسى، ومحمد - عليهما الصلاة والسلام-، وحب موسى عليه السلام لأمة النبي ﷺ، ومحاولات النبي ﷺ الجادة الصادقة المتكررة إقامة جسر من العلاقات الطيبة بينه وبين اليهود بعد هجرته إلى المدينة وإقامة دولته؛ باعتبارهم أهل كتاب عندهم أثارة من نور النبوة التي منَّ الله بها على نبيهم موسى عليه السلام، ولا تزال عندهم بقايا من الحق في توراتهم تتعلق بصفة النبي ﷺ ونبوته، ففي "الصحيحين"، في حديث الإسراء والمعراج الطويل، وفيه: يحكي النبي ﷺ الحوار الخاص الذي دار بينه وبين أخيه موسى عليه السلام -من بين الأنبياء جميعًا-، فيقول فيه: «فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاَةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّى، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِى. فَحَطَّ عَنِّى خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ حَطَّ عَنِّى خَمْسًا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّى تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عليه السلام حَتَّى قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاَةً. وَمَنْ هَمَّ

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام-، ح رقم (٣٢٢٤)، ومسلم في "صحيحه"، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، ح رقم (١٠٦٢).

بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّى حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ »[1].

وأخرج الإمام البخاري في "صحيحه" بسنده إلى عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»[2].

خامسًا: في قصة موسى عليه السلام عظة وعبرة للنبي ﷺ ومن اتبعه من الدعاة إلى الله تعالى؛ لتكون لهم مِسْبَارًا ونبراسًا؛ لمعرفة علل الأشياء ومعلولاتها، ومن ثم يسيرون في شؤونهم الدعوية على طرائقها.

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام، ح رقم (٣١٦٤)، ومسلم في "صحيحه"، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، ح رقم (١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفتح، ح رقم (٤٥٥٨) .

المحور الثاني: فائدة تكرار قصة موسى عليه السلام في سور كثيرة:

ثمة سؤال مهم؛ وهو: لماذا لم تذكر قصة موسى عليه السلام كلها في موضع واحد في سورة واحدة في القرآن الكريم؟ أو لماذا تكرر ذكرها في مواضع كثيرة في القرآن الكريم؟ ولماذا كل هذه الآيات التي تحدثت عن قصة موسى عليه السلام؟

والجواب عن ذلك هو: «أن القرآن...بالخطب والمواعظ أشبه منه بالتآليف، وفوائد القصص تجتلبها المناسبات، وتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرًا لها؛ لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى؛ كما لا يقال للخطيب في قوم –ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبا في مثل مقامه الأول، فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة – إنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته، وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء، فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي؛ ثم تحصل معه مقاصد أخرى:

أحدها: رسوخها في الأذهان بتكريرها.

الثاني: ظهور البلاغة؛ فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ، فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات أو كناية، وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات... وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية، ونحو ذلك، كان ذلك من الحدود القصوى في البلاغة، فذلك وجه من وجوه الإعجاز.

الثالث: أن يسمع اللاحقون من المؤمنين في وقت نزول القرآن ذكر القصة التي كانت فاتتهم مماثلتها قبل إسلامهم أو في مدة مغيبهم؛ فإن تلقي القرآن عند نزوله أوقع في النفوس من تطلبه من حافظيه.

الرابع: أن جمع المؤمنين جميع القرآن حفظًا، كان نادرًا، بل تجد البعض يحفظ بعض

السور، فيكون الذي حفظ إحدى السور التي ذكرت فيها القصة عالمًا ... بها كعلم من حفظ سورة أخرى ذكرت فيها...القصة.

الخامس: ... تختلف حكاية القصة ... بأساليب مختلفة، ويذكر في بعض حكايتها... ما لم يذكر في بعضها الآخر، وذلك لأسباب:

- منها تجنب التطويل في الحكاية الواحدة، فيقتصر على موضع العبرة منها في موضع، ويذكر آخر في موضع آخر؛ فيحصل من متفرق مواضعها في القرآن كمال القصة أو كمال المقصود منها، وفي بعضها ما هو شرح لبعض.

- ومنها أن يكون بعض القصة المذكور في موضع - مناسبًا للحالة المقصودة من سامعيها، ومن أجل ذلك تجد ذكرًا لبعض القصة في موضع، وتجد ذكرًا لبعض آخر منها في موضع آخر؛ لأن فيما يذكر منها مناسبة للسياق الذي سيقت له، فإنها تارة تساق إلى المشركين، وتارة إلى أهل الكتاب، وتارة تساق إلى المؤمنين، وتارة إلى كليهما، وقد تساق للطائفة من هؤلاء في حالة خاصة، ثم تساق إليها في حالة أخرى؛ وبذلك تتفاوت بالإطناب والإيجاز على حسب المقامات؛ فمثلًا: قصة بعث موسى عليه السلام ... بسطت في سورة طه، وسورة الشعراء، وأوجزت في آيتين في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥، ٣٦].

- ومنها أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة، وتارة لا يقصد ذلك»[١].

---

(١) "التحرير والتنوير"، (٦٨/١، وما بعدها بتصرف يسير واختصار).

ومن أسرار اعتناء القرآن الكريم بقصة موسى عليه السلام أيضًا: رسم الطريق البين للنبي ﷺ وأتباعه من الدعاة إلى الله تعالى المتمكنين من أسباب الفاعلية؛ حتى يحققوا المقصد من أعمالهم الدعوية، فهذ الطريق الذي يُرسم من خلال قصة موسى عليه السلام: يقوم على العلم بالحق، والعمل به، كما أن القصة تبين سبل المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يعملون به، بل يصدون الناس عنه، ويبغونها عوجًا.

ومن أسرار اعتناء القرآن بها كذلك: أن موسى عليه السلام قد واجه أعتى طغاة العصور: (فرعون، وهامان، وقارون)، وجنودهم، وسحرتهم الذين يشرعنون طغيانهم، ووزراؤهم الذين يتزلفون إليهم بكل الوسائل، والحاشرون الذين يضللون الناس صباح مساء. وهي ظاهرة تتكرر في كل العصور.

ومن الأسرار أيضًا: أن موسى عليه السلام أُرسل إلى بني إسرائيل الذين فسدت طبائع أغلبهم؛ بسبب ما تعرضوا له من ظلم وطغيان، وتغيرت فِطرهم؛ بسبب الذل والاستعباد والكبت والحرمان، فبذل معهم جهودًا مضنية، وعانى موسى عليه السلام منهم أقسى المعاناة، وكلما وضعهم على الطريق البين الصحيح المستقيم انتكسوا.

لهذا وغيره تكررت قصته في القرآن كثيرًا، حتى تكون نبراسًا للنبي ﷺ وأتباعه من الدعاة إلى الله تعالى.

المحور الثالث: لمحة عن واقع الأرض قبل وبعد ولادة موسى عليه السلام

المقصود بالأرض هنا: أرض مصر -على وجه الخصوص-، والأرض التي كانت تحت مُلك فرعون -بصفة عامة- فإن ملكه قد امتد من بلاد الهند من حدود نهر (الْكَنْكِ) في الهند إلى نهر (الطونة) في أوروبا.

وفرعون هذا الذي ولد موسى عليه السلام في عهده هو: (رَعْمَسِيسُ) الثاني، وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة في اصطلاح المؤرخين للفراعنة، وكان فاتحًا كبيرًا شديد السطوة[1].

وقد عم الفساد وانتشر انتشارًا رهيبًا في بر هذه الأرض وبحرها، ووصلت الأوضاع العامة في فترة ما قبل ميلاد موسى عليه السلام وما بعده إلى أقصى درجات الفساد والانحلال على كل المستويات - العقدي، والخلقي، والاجتماعي، والاقتصادي...إلخ؛ وذلك بسبب هذا الجبار الطاغية المتغطرس (فرعون) الذي استشعر نفسه في موضع ليس يساويه غيره؛ فمزق بلاد القبط إلى فرق، وأوقع بين هذه الفرق النزاعات؛ حتى يضرب بعضهم ببعض؛ ومن ثم يأمن من وحدتهم واجتماعهم ضده، فكانت كل فرقة من هذه الفرق تنازع الفرقة الأخرى، وكل فرقة من هذه الفرق المتنازعة تتشيع إليه؛ ومكن القوي من الضعيف، والغني من الفقير، وسفك الدماء، وسلب الأموال، واستولى على الحقوق، وحجر على الأفكار، وقتل كل إبداع وطموح وموهبة، وأسكت كل الأصوات إلا الصوت الذي يمدحه ويسبح بحمده.

وقسم فرعون هذا بلاد مصر إلى ست وثلاثين ولاية، وجعل على كل واحدة منها نوابًا عنه، وأذل طائفة بني إسرائيل فسامهم سوء العذاب وسخرهم للأعمال الشاقة، وقام بقتل

(١) يراجع: "السابق"، (٢٠/٦٧).

أبناءهم الذكور، واستحياء الإناث، إهانة وإذلالًا لهم واحتقارا من شأنهم.

وانتشر الشرك في طول البلاد وعرضها، وعبد الناس آلهة متنوعة من الكواكب والعناصر من دون الله تعالى، كان أشهرها: (فِتَاحُ)، و (رَعْ) - وهو الشمس -، وثالوث مجموع من أب وأم وابن، هم: (إزيريس، إِزِيسُ، هُورُوسُ)، و (تُوتْ) - وهو القمر - ويمثل رب الحكمة، و (أَمُونْ رَعْ)، وأعظم هذه الأصنام هو الذي ينتسب فرعون إلى بنوته وخدمته، فادَّعى الألوهية وأنه ابن الشمس(١)؛ ومن ثم وضع تشريعات تصب في صالحه وصالح من أعانوه على ظلمه وطغيانه على حساب المقهورين والمضطهدين.

وكان الإفساد متمكنًا بشدة من خُلقه، فضرب فساده وإفساده أطنابه في كل شيء في ربوع الأرض التي كانت تحت تصرفه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور - رحمه الله-: «إن فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة:

المفسدة الأولى: التكبر والتجبر؛ فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس، والاستخفاف بحقوقهم، وسوء معاشرتهم، وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم، وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يبتز

(١) يراجع: "التحرير والتنوير"، (٥٨/٩، وما بعدها)، (٦٦/٢٠) .

منافعهم لنفسه، ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته، فهذه الصفة هي أم المفاسد وجماعها؛ ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها ثم أعقبت بأنه: ﴿كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعًا، وفرقهم أقسامًا، وجعل منهم شيعًا مقربين منه؛ ويفهم منه: أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة فيحلوا محل الآخرين؛ وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض فيكون بعضهم لبعض فتنة، وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة -بمنزلة الأبناء من الأب-، يحب لهم الخير ويقومهم بالعدل واللين، لا ميزة لفرقة على فرقة، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية.

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها مُحَقَّرَةً مهضومة الجانب، لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها؛ لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها.

والمراد بالطائفة: بنو إسرائيل، وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف عليه السلام وَأُعْطُوا أرض (جَاسَانَ)، وَعَمَرُوهَا وتكاثروا فيها، ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة، فكان لهم من الحق في أرض المملكة ما لسائر سكانها، فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾. إذ جعلها من أهل الأرض الذين جعلهم فرعون شيعا.

وأشار بقوله: ﴿طَائِفَةً﴾ إلى أنه استضعف فريقًا كاملًا، فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جاريا على أشخاص معينين لأسباب تقتضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد أو ليسوا أهلًا للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية؛ وذلك فساد لأنه يَقْرِنُ الفاضل بالمفضول.

من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية: أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره، ولم يراع غير النوعية من ذكورة وأنوثة وهي:

المفسدة الرابعة: أنه يذبح أبناءهم ... والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال ... وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم؛ حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة: أنه يستحيي النساء، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهم اسم النساء باعتبار المآل؛ إيماء إلى أنه يَسْتَحْيِيهِنَّ ليصرن نساء؛ فتصلحن لما تصلح له النساء، وهو أن يصرن بغايا؛ إذ ليس لهن أزواج، وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن، فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء إذ كل ذلك اعتداء على الحق[1]، هذا هو واقع الحال، أما ما هو مقدر في المآل؛ فسوف أتناوله فيما يلي من مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه الحقب.

---

(١) "السابق"، (٢٠/٦٨، وما بعدها) .

المبحث الأول

مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من ميلاد موسى عليه السلام إلى عودته إلى أمه

تجلت مظاهر التدبير الرباني في هذه الفترة على النحو التالي:

أولًا: سعة رحمة الله بالمستضعفين المظلومين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

بعد هذا الفساد الكبير الذي عمَّ، وهذا الباطل الذي انتشر، وهذا الشر الذي تمحض، وهذا البغي الذي تمرد على يد فرعون وزبانيته، وخدعتهم قوتهم وسطوتهم، وظنوا أنهم ملكوا رقاب العباد، وأحكموا سيطرتهم على البلاد، وظنوا أنهم على كل شيء قادرون؛ جاء أمر الله تعالى الذي لا رادّ له، لذا قال الله تعالى عقب ذكر هذا الفساد وهذا الشر الذي تسبب فيه فرعون وحاشيته: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦] .

وهذا (المنّ) -الذي تفضل الله به على الطائفة المستضعفة التي سامها فرعون ومن معه سوء العذاب - يشمل الكثير من الأمور، خص الله تعالى بالذكر منها أربعة؛ هي: جعلهم أئمة وقادة لا عبيد تابعين، وجعلهم الوارثين للأرض المباركة التي استحقوها بسبب إيمانهم وصلاحهم، والتمكين لهم في الأرض؛ فيجعلهم أقوياء مطمئنين لا ضعفاء مهانين، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم.

ثانيًا: خَلْقُ الله تعالى المنقذ للطائفة المستضعفة:

ولما تعلقت إرادة الله تعالى بإنقاذ هذه الطائفة المستضعفة المضطهدة؛ هيأ الله لذلك الأسباب؛ ومن أجلِّ هذه الأسباب خَلْقه سبحانه المنقذ لهم. وكان فرعون قد تخوف هو وزبانيته

من أن يوجد من بني إسرائيل غلام، يكون سبب هلاكه وذهاب مملكته على يديه؛ «وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ﷺ، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى، حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه، ومنعه منها بقدرته؛ فبشر إبراهيم ﷺ ولده أنه سيولد من صلبه وذريته مَن يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ... ولما أكثر فرعون من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يُفْني بني إسرائيل فَيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة؛ فقالوا لفرعون: إنه يوشك -إن استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم، وغلمانهم لا يعيشون، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك؛ فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون ﷺ في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى ﷺ في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك، وقوابل يَدُرْنَ على النساء، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُها إلا نساء القبط، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذبَّاحون، بأيديهم الشفار المرهفة، فقتلوه ومضوا قَبَّحَهُم الله. فلما حملت أم موسى به ﷺ لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا وأحبته حبًّا زائدًا، وكان موسى ﷺ لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعًا وشرعًا»(١).

---

(١) "تفسير القرآن العظيم"، إسماعيل بن عمر بن كثير، (٤٦١/٣، وما بعدها)، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. ويراجع: حديث الفتون الذي أخرجه النسائي في "السنن الكبرى"، كتاب التفسير، سورة "طه"، حديث الفتون، ح رقم (١١٢٦٣)، وأخرجه كذلك: أبو يعلى في =

جن جنون فرعون، واتخذ لذلك إجراءات في غاية الشدة والقسوة والصرامة، وأصابه الخوف والهلع؛ بسبب طفل! فأمر بقتل كل طفل يولد في بني إسرائيل؛ ولكن لا يجدي حذر من قدر؛ وأجل الله إذا جاء لن يستطيع فرعون وأمثاله ومن على شاكلته أن يؤخروه، ولكل أجل كتاب.

ثالثًا: حفظ الله تعالى للمنقذ على أيدي النساء الضعيفات:

ولد موسى عليه السلام وفرعون الذي غرته قوته وسطوته عازم على أن يقتل كل طفل يولد في بني إسرائيل؛ حتى لا يفلت منه الغلام الذي أُخبر أنه سيكون سبب هلاكه، وأراد أن يحاد الله تعالى في قدره، وظن أنه على ذلك قادر؛ -لأنه لا يعقل، ولا يفقه، ولا يبصر، وهو مع ذلك مستكبر-، لكن الله تعالى أراد أن يحفظ موسى عليه السلام منه، وكان للنساء دور كبير عظيم في هذا الحفظ الرباني، والمتأمل في آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن هذه المرحلة - كآيات

=

"مسنده" (٢٦١٨)، من طريق أَصْبَغ بن زَيْدٍ، حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، حدثني سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ: " سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ؛ وساق الحديث بطوله.. قال الهيثمي - رحمه الله- في: "مجمع الزوائد" (٧/ ٦٦): "رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ أَصْبَغَ بْنِ زَيْدٍ وَالْقَاسِمِ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ وَهُمَا ثِقَتَانِ". وقال البوصيري رحمه الله- في: "إتحاف الخيرة المهرة" (٦/ ٢٤٤): "هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ وَثَّقَهُ ابْنُ سَعْدٍ وَأَبُو دَاوُدَ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ، وَأَصْبَغُ بْنُ زَيْدٍ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَعِينٍ وَالنَّسَائِيُّ، وَبَاقِي رِجَالِ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ". وأصبغ بن زيد: تكلم فيه بعض الأئمة، ووثقه كثيرون؛ ولعله لذلك قال الذهبي في تاريخ الإسلام (١٢٨/٨): "فيه لين". قال ابن كثير رحمه الله- في "تفسيره" (٥/ ٢٩٣): هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ الْكُبْرَى، وَأَخْرَجَهُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ بِهِ وَهُوَ مَوْقُوفٌ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِيهِ مَرْفُوعٌ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُ، وَكَأَنَّهُ تَلَقَّاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِمَّا أُبِيحَ نَقْلُهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ أَوْ غَيْرِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْحَافِظَ أَبَا الْحَجَّاجِ الْمِزِّيَّ يَقُولُ ذَلِكَ أَيْضًا".

سورة القصص - لا يجد لأحد من الرجال ذكرًا أو دورًا في نجاة موسى عليه السلام وحفظه من فرعون وزبانيته، لكن القرآن الكريم ركز في آياته التي تحدثت عن هذه المرحلة على قيام النساء الضعيفات بهذا الدور الجليل؛ وهؤلاء النسوة اللائي قمن بهذا الدور هن: أم موسى عليه السلام، وامرأة فرعون، وأخت موسى عليه السلام، والجواري اللائي التقطنه، -وإن كان دورهن ثانويًا عابرًا-؛ وهذا يدل على هوان فرعون على الله تعالى، فالله تعالى يحفظ موسى عليه السلام بالنساء الضعيفات، في الوقت الذي يملك فيه فرعون مقومات القوة والبطش جميعها، ومع ذلك ينجو موسى عليه السلام بفضل الله تعالى ومنّه وكرمه على أيدي هؤلاء النسوة.

وأراد الله تعالى أن يُربى الطفل في قصر فرعون نفسه، وفرعون هو الذي يربيه وينفق عليه، وأم موسى عليه السلام: حائرة، خائفة، ضعيفة، قلقة، ملهوفة، لا تملك حيلة؛ لتنجو بابنها، يرتجف قلبها، لا تدري ماذا تفعل؟ فهي إن استطاعت إخفاءه؛ فهي عاجزة عن حجز صوته الذي يدل المجرمين عليه، وهنا تدركها عناية الله تعالى لتدلها كيف تتصرف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] . ومع أن إلقاء الطفل في اليم هلكة محققة في العادة؛ إلا أن أم موسى عليه السلام استجابت لله تعالى، واطمأنت على طفلها حين وضعته في اليم؛ لأنها تعلم يقينًا أنه في كنف الله تعالى، وأنه في رعاية من لا أمن إلا في جواره، وأن الذي يفكر أن يصيبه بأذى فهو يفكر في حرب الله تعالى، ومحارب الله تعالى محروب، ومقاتله مقتول. ويتهادى التابوت بالرضيع الذي لا يملك حيلة، حتى وصل إلى جوار قصر فرعون: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨] . التقطه الجواري، وذهبن به إلى امرأة فرعون.

وهل كانت أمه تخشى عليه إلا من فرعون وزبانيته؟ نعم.. إنها قدرة الله التي تتحدى قدرة فرعون وهامان وجنودهما بطريقة سافرة... ففرعون وزبانيته فعلوا كل شيء، واتخذوا كل الاحتياطات؛ حتى لا يفلت طفل ذكر من بني إسرائيل، وها هو الطفل يذهب إليهم دون

تعب منهم في البحث عنه، وهذا ليس أي طفل؛ إنه الطفل الذي يبحثون عنه، إنه الطفل الذي سيتسبب في هلاكهم جميعًا: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨] . لكن كيف ذلك، وموسى عليه السلام بين أيديهم -لا حول له ولا قوة-؟ والجواب في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩] .

فتحت امرأة فرعون التابوت فإذا هو غلامٌ من أجمل الخلق وأحسنه، ولم لا وهو جمالٌ زكّاه الله؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] . فقد شاء الله تعالى وقدر أن يلقي حبه في قلب من يراه، وقدرة الله تعالى التي اقتحمت بموسى عليه السلام على فرعون قصره؛ هي نفسها التي اقتحمت به قلب امرأته؛ وهذا من هوان فرعون الطاغية الظالم على الله تعالى، فلم يحمه الله تعالى من فرعون بمدد من الملائكة، ولا بقوة سلاح، ولا بمال ولا بجاه، ولا غير ذلك، وإنما أراد الله تعالى أن يحميه بستر رقيق من حب حان قذفه الله سبحانه في قلب امرأة فرعون تجاه موسى عليه السلام؛ خارت معه قوة فرعون السفاح غليظ القلب، وخارت قسوة قلبه وحرصه وحذره.

كما شاء الله تعالى بهذا كرامة امرأة فرعون، وشقاء فرعون؛ فلما رآه فرعون همّ بقتله؛ فحالت امرأته بينه وبين الطفل، وخاصمت عنه: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] . فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي، قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ قُرَّةَ عَيْنٍ كَمَا أَقَرَّتِ امْرَأَتُهُ؛ لَهَدَاهُ اللهُ كَمَا هَدَاهَا، وَلَكِنَّ اللهَ حَرَمَهُ ذَلِكَ»(١) . وابتدأت امرأة فرعون بنفسها في: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ (قبل ذكر فرعون؛ إدلالًا عليه لمكانتها

(١) قطعة من حديث الفتون الذي سبق تخريجه.

عنده أرادت أن تبتدره بذلك؛ حتى لا يصدر عنه الأمر بقتل الطفل(١) .

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص: ٩] . لأن نهاية الظالم المجرم وجنده ستكون على يديه؛ «وضمير الجمع في قولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يجوز أن يراد به فرعون نزّلته منزلة الجماعة على وجه التعظيم... ويجوز أن يراد به خطاب فرعون داخلًا فيه أهل دولته هامان والكهنة الذين ألقوا في نفس فرعون أن فتى من إسرائيل يفسد عليه مملكته؛ وهذا أحسن؛ لأن فيه تمهيدًا لإجابة سُؤْلها حين أسندت معظم القتل لأهل الدولة، وجعلت لفرعون منه حظ الواحد من الجماعة، فكأنها تعرّض بأن ذلك ينبغي أن لا يكون عن رأيه، فتهوِّن عليه عدوله في هذا الطفل عما تقرر من قتل الأطفال، وقيل: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ (التفات عن خطاب فرعون إلى خطاب الموكّلين بقتل أطفال إسرائيل ... فموقع جملة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾. موقع التمهيد والمقدمة للعرض، وموقع جملة: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾. موقع التفريع عن المقدمة ولذلك فصلت عنها»(٢) .

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] . وهو قدرهم المحتوم؛ الذي حذروا منه طويلًا، وفعلوا كل ما يمكن لأهل الشر أن يفعلوه حتى يحفظوا أنفسهم منه؛ ولكن هيهات هيهات.

وجملة: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾: «هي في موقع العلة لمضمون جملة: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، فاتصالها بها كاتصال جملة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾. بها، ولكن نظم الكلام قضى بهذا الترتيب البليغ بأن جعل الوازع الطبيعي عن القتل -وهو وازع المحبة - هو المقدِّمة؛ لأنه أشدّ تعلقًا

---

(١) "التحرير والتنوير"، (٢٠/٧٩) .

(٢) "السابق" الموضع نفسه.

بالنفس، فهو يشبه المعلوم البديهي، وجعل الوازع العقلي بعد النهي علةً لاحتياجه إلى الفكر، فتكون مهلة التفكير بعد سماع النهي الممهد بالوازع الطبيعي فلا يخشى جماح السامع من النهي ورفضه إياه.

ويتضمن قولها: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ إزالة ما خامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي بأن هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه؛ لأنه لما انضم في أهلهم وسيكون ربيَّهم؛ فإنه يرجى منه نفعهم، وأن يكون لهم كالولد؛ فأقنعت فرعون بقياس على الأحوال المجربة في علاقة التربية والمعاشرة والتبني والإحسان، وإن الخير لا يأتي بالشر؛ ولذلك وقع بعده الاعتراض بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أي: وفرعون وقومه لا يعلمون خفي إرادة الله من الانتقام من أمة القبط بسبب موسى عليه السلام؛ ولعل الله حقق لامرأة فرعون رجاءها: فكان موسى عليه السلام قرة عين لها ولزوجها، فلما هلكا وجاء فرعون آخر بعدهما؛ كان ما قدره الله من نصر بني إسرائيل»[1]. إنها قدرة الله تعالى التي تتحداهم وتستهزئ بهم، وهم لا يشعرون.

هذا بخصوص موسى عليه السلام وعناية الله تعالى به، فماذا عن أم موسى عليه السلام الضعيفة المسكينة الوالهة، وقلبها المتقطع؟

لقد نزلت أم موسى عليه السلام على إرادة الله تعالى، ففعلت ما أراده الله سبحانه، وألقت بطفلها الرضيع الضعيف الذي لا حول له ولا قوة في اليم؛ -لكنها أم، وهي بشر-، فظلت تفكر فيه حتى كاد التفكير أن يقتلها، أين هو الآن؟ ماذا فعلت به أمواج اليم المتلاطمة؟ ... والقرآن الكريم يصور حال أم موسى عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ

(١) "السابق" (٢٠/٧٩، وما بعدها).

كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] . ونجحت الأم في اختبار الله تعالى لها، وطلبت من أخته أن تذهب تتحسس أخبار أخيها كما ذكر القرآن: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١] .

وهنا يأتي دور الأخت العاقلة الفاضلة الذكية الفطنة: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾: اتبعي أثر أخيك، واعرفي خبره، فانطلقت الأخت على حذرٍ وخفية تتتبع أخبار أخيها، وتتحسس آثاره، فكانت خطواتها في هذه المهمة الخطيرة مدروسة بعناية؛ ومما يدل على ذلك: أنها لما أبصرته ملكت عاطفتها، وتحكمت في أشواقها ومشاعرها تجاه أخيها، وقدرت للموقف قدره، فتكلمت بالعبارة التي تناسب الموقف بدقة متناهية، وبأسلوب سلس يدل على رجاحة عقلها وحصافتها؛ واستطاعت أن تعيد أخاها إلى أمه من دون أن يشعر أحد من زبانية فرعون بذلك - علمًا بأنهم كانوا شديدي الحرص على معرفة إن كان هذا الطفل من بني إسرائيل، فيقتل كما قتل غيره من أطفال بني إسرائيل: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢] . فأخذوها وقالوا: ما يدريكِ ما نصحهم له؟ ، أتعرفينه؟ حتى شكوا في ذلك، قالت: لا، ولكن نصحهم له رغبتهم ورجاؤهم في نفع الملك، فزال الشك، وقالوا: هيا إليهم(١) . وهذا يدل على نضجها في تصرفاتها وأقوالها، وحسن تربيتها؛ وحفاظها على ما تربت عليه في ظل الأوضاع المتردية.

رابعًا: إباء الله تعالى على موسى عليه السلام أن ينبت لحمه إلا من اللبن النظيف الطاهر:

فقد حرم الله تعالى على موسى عليه السلام أن يلتقم ثدي امرأة غير أمه، داخل القصر أو خارجه، ممن لهن مشاكل عقدية وفكرية وأخلاقية. فموسى عليه السلام لما أبى أن يلتقم ثدي أي

---

(١) يراجع: "حديث حديث الفتون"، الذي سبق تخريجه.

امرأة في القصر أرسلت امرأة فرعون «إِلَى مَنْ حَوْلَهَا إِلَى كُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا لَبَنٌ تَخْتَارُ لَهُ ظِئْرًا[١]، فَجَعَلَ كُلَّمَا أَخَذَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ لِتُرْضِعَهُ لَمْ يُقْبِلْ عَلَى ثَدْيِهَا، حَتَّى أَشْفَقَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنَ اللَّبَنِ فَيَمُوتَ، فَأَحْزَنَهَا ذَلِكَ، فَأَمَرَتْ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى السُّوقِ وَمَجْمَعِ النَّاسِ تَرْجُو أَنْ تَجِدَ لَهُ ظِئْرًا تَأْخُذُهُ مِنْهَا، فَلَمْ يَقْبَلْ، فَأَصْبَحَتْ أُمُّ مُوسَى وَالِهًا، فَقَالَتْ لأُخْتِهِ: قُصِّي أَثَرَهُ وَاطْلُبِيهِ، هَلْ تَسْمَعِينَ لَهُ ذِكْرًا، أَحَيٌّ ابْنِي أَمْ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ، وَنَسِيَتْ مَا كَانَ اللهُ وَعَدَهَا فِيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ أُخْتُهُ عَنْ جُنُبٍ، وَالْجُنُبُ: أَنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الإِنْسَانِ إِلَى الشَّيْءِ الْبَعِيدِ وَهُوَ إِلَى نَاحِيَةٍ لاَ يَشْعُرُ بِهِ، فَقَالَتْ مِنَ الْفَرَحِ حِينَ أَعْيَاهُمُ الظُّئُورَاتُ: أَنَا ﴿أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾... فَأَرْسَلُوهَا فَانْطَلَقَتْ إِلَى أُمِّهَا فَأَخْبَرَتْهَا الْخَبَرَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهَا نَوَى إِلَى ثَدْيِهَا فَمَصَّهُ حَتَّى امْتَلأَ جَنْبَاهُ رِيًّا»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾: معنى مهم؛ وهو الجمع بين كفالتهم، له ونصحهم له، فمعنى يكفلون: أي يتعهدونه بالرضاعة والحفظ، والنصح معناه: إخلاص العمل من شائب الفساد[٣]. «والعدول عن الجملة الفعلية إلى الإسمية في قوله: ﴿نَاصِحُونَ﴾؛ لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم ومما ثبت لهم؛ فلذلك لم يقل: وينصحون له كما قيل: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾؛ لأن الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية»[٤]؛

---

(١) الظئر هي المرضعة غير الأم. يراجع: "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي"، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، (٣٨٨/٢)، المكتبة العلمية – بيروت.

(٢) يراجع: "حديث حديث الفتون"، الذي سبق تخريجه.

(٣) يراجع: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (٤٠١/٣)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت

(٤) "التحرير والتنوير"، (٨٤/٢٠) .

ومن ثم رضع موسى عليه السلام من أمه في بيتها شيئين:

الأول: لبن الغذاء (المادي) لينمو به بدنه، وتنشذ به عظامه. الثاني: لبن الغذاء (المعنوي) وهو الغذاء الإيماني والتربوي؛ لينمو به القلب والعقل(١)، وبهذا تحقق الأمران: الكفالة، والنصح.

وقد صدق الله تعالى وعده، وأنجز عهده لأم موسى عليه السلام برجوع ابنها إليها، وتم تدبير الله تعالى لموسى عليه السلام وأمه، قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣] .

لقد طلبت امرأة فرعون من أم موسى عليه السلام – وهي لا تعلم أنها أمه – أن تقيم عندها في قصر زوجها؛ لتقوم على شؤون الطفل الرضيع، فرفضت أم موسى عليه السلام معللة رفضها بأن لها بيتًا وولدًا، وقالت لامرأة فرعون: إن شئت أرضعته عندي، فرضيت امرأة فرعون بذلك، فعادت به أمه إلى بيتها آمنة مطمئنة راضية، في عز ورغد وجاه ورزق؛ تجري عليها النفقات ونفائس العطايا وأحسن الهدايا.

ذكر ابن عباس رضي الله عنهما كما في حديث "الفتون" الذي أخرجه النسائي في "السنن الكبرى": أن امرأة فرعون قالت لأم موسى عليه السلام: «امْكُثِي تُرْضِعِي ابْنِي هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أُحِبَّ شَيْئًا حُبَّهُ قَطُّ، قَالَتْ أُمُّ مُوسَى: لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدَعَ بَيْتِي وَوَلَدِي فَيَضِيعَ، فَإِنْ طَابَتْ نَفْسُكِ أَنْ تُعْطِينِيهِ فَأَذْهَبَ بِهِ إِلَى بَيْتِي فَيَكُونَ مَعِي، لاَ آلُوهُ خَيْرًا فَعَلْتُ، فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكَةٍ بَيْتِي وَوَلَدِي، وَذَكَرَتْ أُمُّ مُوسَى مَا كَانَ اللهُ وَعَدَهُ، فَتَعَاسَرَتْ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَأَيْقَنَتْ أَنَّ اللهَ مُنْجِزٌ

---

(١) يراجع: المستفاد من تاريخ الدعوة إلى الله قديمًا وحديثًا، ا.د/ فرج محمد الوصيف، (١٣٨/١، ١٥٨)، ط/١، ١٤٣٢ هـ، ٢٠١١ م.

مَوْعُودَهُ، فَرَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا مِنْ يَوْمِهَا، فَأَنْبَتَهُ اللهُ نَبَاتًا حَسَنًا، وَحُفِظَ لِمَا قَدْ قَضَى فِيهِ، فَلَمْ يَزَلْ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَهُمْ فِي نَاحِيَةِ الْقَرْيَةِ مُمْتَنِعِينَ مِنَ السُّخْرَةِ وَالظُّلْمِ مَا كَانَ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَرَعْرَعَ قَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لأُمِّ مُوسَى: أَزِيرِينِي ابْنِي، فَوَعَدَتْهَا يَوْمًا تُزِيرُهَا إِيَّاهُ فِيهِ، وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِخَازِنِهَا وَقَهَارِمَتِهَا: لاَ يَبْقَيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلاَّ اسْتَقْبَلَ ابْنِي الْيَوْمَ بِهَدِيَّةٍ وَكَرَامَةٍ، لأَرَى ذَلِكَ فِيهِ، وَأَنَا بَاعِثَةٌ أَمِينًا يُحْصِي كُلَّ مَا يَصْنَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ، فَلَمْ تَزَلِ الْهَدَايَا وَالْكَرَامَةُ وَالنِّحَلُ تَسْتَقْبِلُهُ مِنْ حِينِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ أُمِّهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا نَحَلَتْهُ وَأَكْرَمَتْهُ، وَفَرِحَتْ بِهِ، وَنَحَلَتْ أُمَّهُ بِحُسْنِ أَثَرِهَا عَلَيْهِ»(١).

عاد موسى عليه السلام إلى أمه الوالهة -في حماية فرعون - لترعاه، وهي التي كانت بالأمس القريب تخاف على ولدها من فرعون وتخشاه، وفرعون هو الذي يأمرها أن ترضعه وتشبعه؛ إنها ثمرة الثقة في الله - جل في علاه -، والاعتصام به، وحسن الظن به سبحانه.

وهذا درس عظيم للدعاة إلى الله تعالى ينبغي أن يتدبروه وأن يوقنوا به، وأن يثبت في أنفسهم، ويُمكّن من قلوبهم، ويرسخ في مشاعرهم؛ فإذا أرعد الباطل وأبرق، وزمجر ولجلج، وتوالت على الأمة الأزمات والنكبات والكروب؛ فإن فرج الله تعالى آت لا محالة، وقد يأتي سريعًا - كما في قصة موسى عليه السلام-، وقد يكون بعد حين، والأمر كله لله تعالى؛ يأتي به لمن شاء، كيف شاء، في الوقت الذي شاء؛ فإن الله تعالى لا يعجل بعجلة أحد، ومن كان الله تعالى معه فلا خوف عليه، لكن الله تعالى مع من؟ ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور - رحمه الله تعالى-: «وموضع العبرة من هذه

(١) قطعة من حديث الفتون الذي سبق تخريجه.

القصة: أنها تتضمن أمورًا ذات شأن فيها ذكرى للمؤمنين، وموعظة للمشركين:

فأول ذلك وأعظمه: إظهار أن ما علمه الله وقدره هو كائن لا محالة؛ كما دل عليه قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦] . وأن الحذر لا ينجي من القدر.

وثانيه: إظهار أن العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين، وأن علو فرعون لم يغن عنه شيئًا في دفع عواقب الجبروت والفساد؛ ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة.

وثالثه: أن تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشير إلى أن ذلك هو سبب الانتقام منه، والأخذ بناصر المستضعفين؛ ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم، وليرجوا الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم.

ورابعه: الإشارة إلى حكمة: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] . جانب بني إسرائيل، ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] . في جانب فرعون، إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم.

وخامسه: أن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أَمَّلُوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر، وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو، كما قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] مع قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ [القصص: ٩] .

وسادسه: أنه لا يجوز بحكم التعقل أن تُسْتَأْصَلَ أمة كاملة لتوقع مفسد فيها؛ لعدم التوازن بين المفسدتين، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة، فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد، فتحصلُ مفسدتان هما: أخذ البريء، وانفلات المجرم.

وسابعه: تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه، ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي، ولما قدر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولأنجى موسى عليه السلام

وبني إسرائيل إنجاء أسرع، ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى عليه السلام في اليم إلى أن رده إلى أمه، فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وليتوسموا من بوارق ظهور النبيء محمد ﷺ وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوة أن ما وعدهم به واقع بِأَخَرَةٍ.

وثامنه: العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين يخفف من لأواء فساد المفسدين؛ فإن وجود امرأة فرعون كان سببا في صد فرعون عن قتل الطفل، مع أنه تحقق أنه إسرائيلي، فقالت امرأته: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ [القصص: ٩] ...

وتاسعه: ما في قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه.

وعاشره: ما في قوله: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الإشارة إلى أن المرء يُؤْتَى من جهله النظرَ في أدلة العقل»[1].

---

(١) "التحرير والتنوير"، (٨٥/٢٠، وما بعدها) .

المبحث الثاني

مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من بلوغ موسى عليه السلام أشده إلى تكليفه بالرسالة

اتضحت مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه المرحلة فيما يلي:

أولًا: وصول المنقذ لمرحلة قوة الجسم، ونُضج العقل:

قال الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤]. في هذه الآية نقلة نوعية كبرى في حياة موسى عليه السلام؛ حيث سكت سياق القصة في القرآن الكريم بعد قول الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٤]. نحو خمسة عشر عامًا، وقيل: ثمانية عشر عامًا، وقيل: عشرون، قيل: خمسة وعشرون، وقيل: ثلاثون، وقيل: ثلاثة وثلاثون، وقيل: ستة وثلاثون(١).

وهذه من عادات القرآن الكريم، حيث يطوي المراحل العمرية التي لا تشتمل على أحداث مهمة تفيد منها الدعوة الإسلامية لاحقًا؛ حتى يصل إلى المهم من الأحداث.

والمرحلة التي طواها القرآن الكريم من حياة موسى عليه السلام وسكت سياق القصة عنها هي مرحلة طفولته، وانتقل بعدها إلى مرحلة شبابه واكتماله؛ وذلك لأن مرحلة الشباب هذه سيطرأ فيها حدث مهم، -وهو قتل القبطي-، وسيكون له في حياة موسى عليه السلام أثر بالغ، وذلك أنه ستترتب على هذا الحدث أحداث أخرى في غاية الأهمية، سأتحدث عنها هنا - إن شاء الله تعالى -؛ لأنها ستمثل مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه

---

(١) يراجع: "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، (٤/٢٨٠)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

المرحلة. والذي يتضح - فيما سكت القرآن الكريم عنه -: أن أم موسى عليه السلام أطلعته على حقائق كثيرة؛ منها: من هو، وما دينه، ومن قومه.

وموسى عليه السلام نفسه نشأ وهو يرى طائفة من الناس تُسام سوء العذاب على يد فرعون وزبانيته، ويرى كذلك الفساد الذي يضرب أطنابه في كل المجالات.

كذلك يبدو أن نفس موسى عليه السلام لم تسترح للحياة في قصر فرعون؛ وهو يرى هذه الأوضاع المأساوية التي لا يمكن أن يقبلها صاحب فطرة سوية، ولا صاحب نفس طاهرة مجتباة كنفس موسى عليه السلام.

ليس ثمة دليل على ما سبق ذكره؛ ولكن سياق الأحداث - كما سيأتي - ينبئ بذلك، - والله أعلم-.

ورغم فساد البيئة المحيطة بموسى عليه السلام - والتي كانت من أفسد البيئات في تاريخ المجتمعات -؛ إلا أن ذلك لم يحل دون تربية موسى عليه السلام تربية سليمة، وكان لمحضن التربية الأول - البيت والأسرة - دور بارز في الإعداد والتكوين، وأثر ذلك واضح في أول مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه المرحلة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾. والأشُدّ: يعني القوة واكتمال النمو، والاستواء: هو بلوغُ العقلِ مرحلةَ النضج الفكري، وبهاتين الصفتين منَّ الله تعالى على موسى عليه السلام أن اجتمع له: قوة الجسم، ونُضج العقل؛ الأمر الذي كان سببًا في منحه الحكم والعلم، كم قال تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين﴾ [القصص: ١٤][(١)]. والمقصود بالحكم: الحكمة،

(١) يراجع: "تفسير الشعراوي - الخواطر"، فضيلة الشيخ/ محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٨٩٦)، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

والمقصود بالعلم: المعرفة بشرع إبراهيم عليه السلام، وهي مقدمة نبوته عليه السلام[1] . ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين﴾ [القصص: ١٤] . زيل الله تعالى الآية بهذه العبارة؛ التي يُفهم منها أن موسى عليه السلام أحسن؛ فجزاه الله من جنس عمله، فأحسن الله تعالى إليه بالحكمة والعلم؛ وليس هذا الجزاء لموسى عليه السلام وحده، وإنما لكل من حقق الإحسان؛ وهذا درس عظيم للدعاة إلى الله تعالى والمصلحين، فالحكمة والعلم طريقهما: الإحسان، والحكمة والعلم ثمرتان للإحسان، فالخير كله في الإحسان.

قال الطبري (ت: ٣١٠ هـ) رحمه الله تعالى: «﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين﴾: يقول تعالى ذكره: كما جزينا موسى عليه السلام على طاعته إيانا وإحسانه بصبره على أمرنا، كذلك نجزي كلّ من أحسن من رسلنا وعبادنا، فصبر على أمرنا وأطاعنا، وانتهى عما نهيناه عنه»[2] . فعلى الدعاة إلى الله تعالى المصلحين أن يجتهدوا في تحقيق مرتبة الإحسان؛ فإن هذا منهج قدوتهم من الأنبياء، وهو واضح في رسولنا - عليه الصلاة والسلام -.

وهذا من تدبير الله تعالى للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه المرحلة: أن يقوى موسى عليه السلام ويكتمل نموه البدني، ويبلغ عقله مرحلة النضوج الفكري؛ ومن ثم يمنحه الله تعالى الحكمة والمعرفة بالله تعالى؛ ليكون ذلك إرهاصًا للحدث الأكبر بعد ذلك، وهو: تكليفه بالرسالة، وبعثه إلى فرعون ليدعوه إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وليرسل معه بني إسرائيل؛ حتى يتخلصوا من إذلال فرعون وزبانيته لهم، ويتفرغوا لعبادة الله

---

(١) "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، (٢٧٩/٤) .

(٢) "جامع البيان في تأويل القرآن"، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، (٥٣٦/١٩)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

وحده.

ثانيًا: قتل موسى عليه السلام للقبطي:

ومن تدبير الله تعالى للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه الفترة: ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] . والمدينة التي دخلها موسى عليه السلام: «هي: (منفيس) قاعدة مصر الشمالية .. وحين الغفلة: هو الوقت الذي يغفل فيه أهل المدينة عما يجري فيها، وهو وقت استراحة الناس وتفرقهم وخُلوّ الطريق منهم. قيل: كان ذلك في وقت القيلولة، وكان موسى عليه السلام مجتازًا بالمدينة وحده، قيل: ليلحق بفرعون إذ كان فرعون قد مر بتلك المدينة. والمقصود من ذكر هذا الوقت: الإشارة إلى أن قتله القبطي لم يشعر به أحد تمهيداً لقوله بعد: ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] الآيات، ومقدمة لذكر خروجه من أرض مصر .

والإشارتان في قوله: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾: تفصيل لما أجمل في قوله: ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾... فالمراد بالذي من شيعته: أنه رجل من بني إسرائيل، وبالذي من عدوه: رجل من القبط قوم فرعون ... وأما وكزه القبطي فلم يكن إلا انتصاراً للحق على جميع التقادير ... قيل: كان القبطي من عملة مخبز فرعون، فأراد أن يحمل حطبًا إلى الفرن، فدعا إسرائيليًا ليحمله فأبى، فأراد أن يجبره على حمله، وأن يضعه على ظهره، فاختصما وتضاربا ضربًا شديدًا – وهو المعبر عنه بالتقاتل على طريق الاستعارة – . والاستغاثة: طلب الغوث وهو التخليص من شدة، أو العون على دفع مشقة. وإنما يكون هذا الطلب بالنداء، فذكر الاستغاثة يؤذن بأن الإسرائيلي كان مغلوبًا، وأن القبطي اشتد عليه وكان ظالمًا، إذ لا يجبر أحد على عمل يعمله. والوكز: الضرب باليد بجمع أصابعها... فمات القبطي، وكان هذا قتل

خطأ صادف الوكز مقاتل القبطي، ولم يرد موسى قتله... ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾... وحكاية ذلك: للتنبيه على أن موسى لم يخطر بباله حينئذ إلا النظر في العاقبة الدينية. وقوله هو كلامه في نفسه ...

والمعنى: أن الشيطان أوقد غضبه حتى بالغ في شدة الوكز. وإنما قال موسى ﷺ ذلك؛ لأن قتل النفس مستقبح في الشرائع البشرية، فإن حفظ النفس المعصومة من أصول الأديان كلها. وكان موسى ﷺ يعلم دين آبائه، لعله بما تلقّاه من أمه المرأة الصالحة في مدة رضاعه وفي مدة زيارته إياها»[١].

ويظهر من سياق الآيات أن موسى ﷺ لم يكن يتعمد قتل القبطي، فلما وكزه ومات؛ ندم موسى ﷺ على ما فعل، وأرجع قتله إياه إلى الشيطان، فهو الذي نفخ فيه الغضب، ثم توجه إلى ربه نادمًا معترفًا بذنبه، طالبًا عفوه وصفحه، فاستجاب الله دعاءه فغفر له: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦] . فقطع موسى ﷺ على نفسه عهدًا – من باب شكر النعمة التي أنعم بها عليه-: ألا يقف أبدًا في صف المجرمين، وألا يكون ظهيرًا لهم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] .

ويتضح من سياق قصة موسى ﷺ في القرآن الكريم أنه كان صاحب شخصية تحب الاستقلال والحرية، وتسعى لتحقيق ذلك؛ لذا يتضح أنه كان في مواقفه كان يبتعد عن المواقف الرسمية للقصر، ويتدرج في الانحياز لطائفته المقهورة المضطهدة؛ فما كان له أن يقر الظالم على ظلمه والباغي على بغيه، فكيف يقر ذلك وهو واقع على طائفته التي ينتمي

---

(١) "التحرير والتنوير"، (٢٠/٨٨، وما بعدها) .

إليها وينتسب.

والذي يبدو أن هذا الإسرائيلي لم يكن ليستغيث بموسى عليه السلام إذا كان موسى عليه السلام لا يزال محافظًا على مكانته داخل القصر والنظام الفرعوني، ويبدو أنه كان متأكدًا أن موسى عليه السلام عرف أنه إسرائيلي، وأنه ناقم على فرعون وزبانيته، وأنه في صف طائفته المضطهدة، والظاهر أن هذا اللائق بموسى عليه السلام، فنفسه الطيبة لا تطيق البقاء وسط الباطل الخالص والشر المحض. وكانت الحكمة من إرجاعه إلى أمه قبل ذلك وهو طفل رضيع: أن تحفظه في نفسه، وتحفظ عليه انتمائه وتبنيه لقضية طائفته المقهورة المظلومة.

واشتهر موسى عليه السلام بمواقفه بين الناس - خاصة طائفة بني إسرائيل المضطهدين المستذلين - أنه نصير المظلومين والمضطهدين؛ مما يدل على ذلك أن الرجلين المتقاتلان بمجرد أن رأى المظلوم منهما موسى عليه السلام استنصره واستعان به في دفع ظلم القبطي عنه، ولولا أن هذا المظلوم يعلم شهامة موسى عليه السلام ووقوفه بجانب المظلوم ما استنصره.

وقد استغل موسى عليه السلام مكانته في القصر، ووظف صلته بفرعون والمقربين منه لخدمة الآخرين، وخاصة الإسرائيليين المظلومين والمقهورين، وهذا من تدبير الله تعالى للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه المرحلة.

ثالثًا: انكشاف أمر موسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٨، ١٩] .

لم يمر أكثر من يوم على وقوع القبطي قتيلًا حينما وكزه موسى عليه السلام، الأمر لم يعلم به أحد إلا موسى عليه السلام والإسرائيلي، وفي اليوم الثاني من وقوع الحادثة انكشف أمر موسى عليه السلام،

وعلى يد من؟ على يد هذا الإسرائيلي الذي استغاث به بالأمس، ووكز موسى ﷺ القبطي نصرة لهذا الإسرائيلي حتى وقع قتيلًا من هذه الوكزة، وندم موسى ﷺ على ما فعل، وطلب من ربه تعالى مغفرته على هذا الذنب، وتاب الله تعالى عليه، وأصبح خائفًا في المدينة من افتضاح أمره، يترقب أن تنكشف فعلته، ومن ثم يُصب عليه الأذى من قبل فرعون وجنوده، وبينما هو كذلك ما راعه إلا الإسرائيلي الذي طلب نجدته بالأمس مشتبكًا مع قبطي آخر، ويستصرخ موسى ﷺ لنجدته منه.

نظر إليه موسى ﷺ وهو على هذه الحال، وصورة القبطي الذي قتله بالأمس لا تفارق مخيلة موسى ﷺ؛ وتذكر شدة ندمه على فعلته هذه التي فعلها بالأمس، وتذكر عهده لربه ألا يكون ظهيرًا ومعينًا للمجرمين، وهذا الترقب الذي يترقبه وخوفه الذي يعيشه من ساعة وقوع الحادثة؛ فإذا به ينفعل على هذا الإسرائيلي قائلًا له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾. لأن اشتباكاته المتتالية مع القبط لا تنفع بني إسرائيل في شيء، بل على العكس فإنها ستلحق الضرر بهم؛ لأنهم ضعفاء عن الوقوف صفًا واحدًا ضد فرعون وجنوده، فهي اشتباكات لا قيمة لها ولا وزن، وضرها أقرب من نفعها، ولا تجدي في تغيير الأوضاع، وهذا ما حدث في مكة حين كف الله المسلمين من الصحابة في بداية الدعوة عن الاشتباك مع المشركين؛ حتى حان الوقت المناسب.

ومع كل هذا إلا أن موسى ﷺ اغتاظ من القبطي، فاندفع نحوه يريد أن يخلص الإسرائيلي منه؛ وهذا الاندفاع سببه أن نفس موسى ﷺ تضيق ذرعًا من الظلم، ولا تتحمل نفسه أن يرى قهرًا وظلمًا وعدوانًا يقع على أحد ولا يدفعه عنه، ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

سمع الإسرائيلي كلام موسى ﷺ له، ورأى تغيرات وجهه التي بدت عليه حينما قال له

ذلك، ثم رأى موسى عليه السلام مندفعًا نحوهما، فظن أنه قادم لقتله هو، وليس لقتل القبطي، رغم أن موسى عليه السلام كان مندفعًا لنجدته من القبطي الذي أوقع الظلم عليه، وهو يعرف جيدًا قوة موسى عليه السلام من خلال ما حدث بالأمس؛ لذا خاف وقال: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾. وبهذا كشف هذا الإسرائيلي أمرًا لم يكن أحد يعلم به، فسمع القبطي ذلك؛ فعلم أن موسى عليه السلام هو من قتل القبطي بالأمس، وهو سر لم يكن يعرفه أحد إلا هذا الإسرائيلي وموسى عليه السلام، فانطلق القبطي مسرعًا إلى فرعون، وحكى له ما حدث.

ذكر ابن عباس رضي الله عنهما في حديث "الفتون": «إِذَا مُوسَى مِنَ الْغَدِ قَدْ رَأَى ذَلِكَ الإِسْرَائِيلِيَّ يُقَاتِلُ رَجُلاً مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ آخَرَ، فَاسْتَغَاثَهُ الإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَصَادَفَ مُوسَى قَدْ نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَكَرِهَ الَّذِي رَأَى، فَغَضِبَ الإِسْرَائِيلِيُّ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ بِالْفِرْعَوْنِيِّ، فَقَالَ لِلإِسْرَائِيلِيِّ لِمَا فَعَلَ أَمْس وَالْيَوْمَ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾، فَنَظَرَ الإِسْرَائِيلِيُّ إِلَى مُوسَى عليه السلام، بَعْدَ مَا قَالَ لَهُ مَا قَالَ، فَإِذْ هُوَ غَضْبَانُ كَغَضَبِهِ بِالأَمْسِ الَّذِي قَتَلَ فِيهِ الْفِرْعَوْنِيَّ فَخَافَ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ مَا قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ، وَلَمْ يَكُنْ أَرَادَهُ وَإِنَّمَا أَرَادَ الْفِرْعَوْنِيَّ، فَخَافَ الإِسْرَائِيلِيُّ وَقَالَ: ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ﴾، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ مُوسَى لِيَقْتُلَهُ، فَتَتَارَكَا وَانْطَلَقَ الْفِرْعَوْنِيُّ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا سَمِعَ مِنَ الإِسْرَائِيلِيِّ مِنَ الْخَبَرِ حِينَ يَقُولُ: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ﴾»(١). واعتبر فرعون فعلة موسى عليه السلام هذه شرارة تمرد عليه وعلى نظامه؛ لذا أجمع أمره على قتل موسى عليه السلام حتى يقضي على هذه الفكرة، ويكون موسى عليه السلام عبرة لمن تسول له نفسه أن يفكر في التمرد على النظام الفرعوني.

---

(١) قطعة من حديث "الفتون" الذي سبق تخريجه.

رابعًا: تقييض الله تعالى لموسى عليه السلام من يخبره بتآمر القوم عليه:

لقد عرف فرعون وحاشيته أن القاتل هو موسى عليه السلام، فأحسوا بأن شبحًا من الخطر بدا في الأفق؛ لأن التجرؤ من موسى عليه السلام الذي تطايرت حوله الشبهات من أنه ناقم على النظام الفرعوني، وكاره لطغيان ملئه؛ فهذا التجرؤ يمثل تمردًا على نظام فرعون، وانتصارًا لطائفة بني إسرائيل التي لطالما خاف النظام الفرعوني أن تتكاثر وتتكاتف ضده؛ لذلك هي ظاهرة في غاية الخطورة بالنسبة لفرعون وحاشيته؛ تستحق أن يتآمروا ضد موسى عليه السلام بسببها.

ولو أن موسى عليه السلام لم يحمل في قلبه هذا الكره والبغض لنظام فرعون، وقتل، لعدها فرعون ومن معه جريمة قتل عادية؛ ما استحقت أن يشغل فرعون ومن معه بالهم بها على الإطلاق.

ولما أجمعوا أمرهم على قتل موسى عليه السلام، وبدأوا البحث عنه؛ قيض الله لموسى عليه السلام جنديًا من جنوده ليطلع موسى عليه السلام على المؤامرة، ناصحًا له أن يخرج على وجه السرعة من أرض مصر. قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

لم يذكر القرآن من هو هذا الرجل، فهو رجل لا نعرفه، ولكن الله تعالى يعرفه، وما ضر هذا الرجل ألا نعرفه، ما دام أن الله تعالى يعرفه. فالقرآن الكريم ذكر أنه رجل، والتعبير بالرجولة في هذا المقام؛ تعبير تكريم وثناء وإشادة به وبموقفه البطولي الإيماني.

إن هذا الرجل يعلم جيدًا أن ما فعله مع موسى عليه السلام يمثل خطورة بالغة عليه، ومع ذلك غامر الرجل، وتجاوز هواجس الخطر، وذهب إلى موسى عليه السلام وأخبره، وليكن ما يكون؛ فكان سببًا في نجاة المختار الذي اختاره الله تعالى ليكلفه برسالته، والذي سينجي الله طائفة بني إسرائيل على يديه، وكذلك سيكون سببًا في هلاك فرعون ومن معه.

وهنا يتكرر إنقاذ الله تعالى لموسى عليه السلام من هلاك محقق، فقد أنقذه الله تعالى من القتل

على يد فرعون الذي أمر بتقتيل ذكور بني إسرائيل، وهيأ الله تعالى الأسباب لذلك، واليوم يهيئ الله تعالى له هذا الرجل لينقذه من تدبير فرعون له بالقتل؛ لأن لله تعالى تدبيرًا آخر غير ما يدبره فرعون ومن معه.

ولعل إحسان موسى عليه السلام الذي عرف به كان سبب حب هذا الرجل له؛ فغامر وأخبره خبر فرعون وملئه.؛ وكل هذا من تدبير الله تعالى للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه المرحلة.

خامسًا: خروج موسى عليه السلام من أرض مصر إلى أرض مدين:

أخذ موسى عليه السلام بنصيحة الرجل الذي جاءه وطلب منه أن يخرج من مصر؛ لأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه؛ فخرج موسى خائفًا يحذر؛ وهذا الحذر يشتمل على دعائه لربه تعالى بأن ينجيه من فرعون وملئه.

وهذا من مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي، فالله تعالى يصطفي من عباده من يشاء لحمل رسالته، فهو سبحانه: ﴿أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] . وإذا تعلقت إرادة الله تعالى بشيء هيأ له بقدرته الأسباب، وكل ما حدث سابقًا في هذه المرحلة هو من تقدير الله تعالى وتدبيره للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي؛ حتى يخرج موسى عليه السلام من أرض مصر إلى أرض مدين؛ ليتعرض إلى مشاق كبيرة تهيئه لتلقي تكليف ربه له بالرسالة، وبعثه إلى فرعون وقومه، وتخليصه بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] . «ومدين: قوم من ذرية مدين بن إبراهيم .. وأرض مدين واقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر، وكان موسى عليه السلام قد سلك إليها ... طريقًا غربية جنوبية، فسلك برية تمر به على أرض العمالقة وأرض

الأدوميين، ثم بلاد النبط إلى أرض مدين؛ تلك مسافة ثمانمائة وخمسين ميلا تقريبا»[١].

خرج موسى عليه السلام من أرض مصر هائمًا على وجهه وحيدًا مطاردًا، فزعًا جائعًا، لا يعلم إلى أين يتوجه، خرج بلا زاد ولا استعداد، ولا راحلة، ولا دليل، مستسلمًا لله تعالى، متوجهًا إليه، متطلعًا إلى هداه؛ فقد أراد الله تعالى أن يكون مسيره في طريق يؤدي إلى أرض مدين، ساعتها: ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وفرعون وجنوده يطاردونه، ويبحثون عنه؛ يريدون أن ينالوا منه حينها ما عجزوا عنه قبل ذلك حينما كان طفلًا رضيعًا؛ فالذي حماه ورعاه ونجاه منهم طفلًا يرعاه ويحميه وينجيه منهم اليوم، فخرج وقطع الطريق الطويل، تصحبه عناية الله تعالى، ويصل إلى المكان الذي لا سيطرة لفرعون وجنوده عليه.

سادسًا: وصوله ماء مدين ولقاؤه بابنتي شعيب:

وصل موسى عليه السلام إلى الماء الذي يجتمع حوله أهل مدين، بعد مشقة شديدة أصابته جراء السفر الطويل، فوجد جماعة كثيرة العدد من الناس من أهل مدين يسقون لأنفسهم ولماشيتهم؛ ورغم أن موسى عليه السلام قد وصل إلى هذا المكان بعد طول عناء، مجهودًا مكدودًا؛ فإذا به يرى مشهدًا لم تسترح إليه نفسه التي تربت على معالى الأمور، حيث رأى الرجال يسقون، ووجد من دونهم امرأتين في جانب متباعد للناس حول الماء. وهذا ما تفيده كلمة "دون" في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾. فهي وصف للشيء الأسفل من غيره[٢]، وكان الأولى أن يفسح الرجال المجال للمرأتين لتسقيان أولًا، بل يساعدوهما على ذلك.

---

(١) "التحرير والتنوير"، (٩٨/٢٠).

(٢) يراجع "السابق"، (٩٩/٢٠، وما بعدها).

رأى موسى عليه السلام هذا المشهد الذي أتعبه نفسيًا وأحزنه؛ فما استطاع القعود ليستريح بعد نصبه الفظيع، وتعبه الشديد، وإرهاقه الكبير، ومعاناته الطويلة أثناء سفره؛ فذهب إلى المرأتين يسألهما عن حالهما الذي أدهشه، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ وحدث بينه وبينهما حوار كان أساسه العفة من الطرفين - من طرف موسى عليه السلام، ومن طرف المرأتين-، وتتجلى مظاهر العفة بين الفتاتين وموسى عليه السلام في التالي:

- اختصار الفتاتين الكلام، وعدم التطويل فيه مع رجل أجنبي، (موسى عليه السلام): ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾. دون أخذ وعطاء، وزيادة ورد.

- عدم فتحهما الحوار مع موسى عليه السلام؛ لأنه أجنبي عنهما، ولأجل ألا يطول الكلام بينهما وبين موسى عليه السلام، جمعتا في كلامهما الإجابة على جميع الأسئلة المحتملة بجملة واحدة مختصرة عفيفة.

- تقديمهما النفي في كلامهما، فقالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾. ولم تقدما الإثبات، فلم تقولا: سنسقي بعد قليل؛ وتقديم النفي أبلغ في الجزم، وأن الأمر لا يقبل النقاش.

- جعلتا غاية وقوفهما عدم اختلاطهما بالرجال حتى صدور الرعاء، أي: انصرافهم، وليس أن تخف الزحمة فحسب أو يقل الرعاء.

- وأما عفة موسى عليه السلام فأكمل من عفتهما؛ فإذا كانت عفة المرأتين تمثلت في جملة واحدة؛ فإن عفة موسى عليه السلام تمثلت في كلمة واحدة، إلى أن تم لقاؤه بأبيهما، ففتح الكلام معه على مصراعيه: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص، ٢٥] .

- وعفة موسى عليه السلام كذلك ظهرت في قيامه بالسقي لهما دون سؤال: هل تريدان ذلك أم لا؟ فالوضع وظاهر الحال لا يحتاج إلى سؤال، ثم السؤال يحتاج إلى كلام وجواب، وهذا مما لا يريده موسى عليه السلام، فقام وسقى لهما.

- كذلك أنه لما سقى لهما توجه مباشرة إلى الظل، ولم ينتظر شكرًا منهما، وهذه فرصة لمرضى القلوب أن يزداد مرضهم، ويتبادلوا أطراف الحديث، وكلمات الشكر، والعرفان، فقد صنع لهن معروفًا دون طلب منهما، ووقف معهن وسقى لهن(١).

سابعًا: استجابة الله تعالى للقلب الضارع الغريب:

لما سقى موسى عليه السلام للمرأتين وأنهى مهمته التي تجلت فيها مروءته ورجولته؛ أوى بجسمه إلى الظل المادي، وأوى بروحه وقلبه إلى ظل الكريم المنان؛ قائلًا: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ورغم أنه كان يتمتع بقوة بدنية كبيرة، وقوة نفسية عظيمة؛ إلا أن ذلك لم يطغه، ولم يدعه إلى التكبر والاغترار.

منحه الله تعالى قوة في البدن، وقد تجلت مظاهره في مواطن كثيرة؛ سبق ذكر بعضها، ومنحه الله تعالى قوة نفسية، كان من مظاهرها: إقدامه وشقه طريقه نحو البئر وسط الرعاء من أهل مدين بثبات - رغم غربته -؛ ومع ذلك لم يعترض عليه أحد، وذلك لوضوح مظاهر قوته النفسية، إلى جانب وضوح مظاهر قوته البدنية، وهاتان القوتان - البدنية، والنفسية - لم يغتر بهما، بل إنه كان يرى أنه في غاية الفقر إلى الله ربه؛ حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. «واقتران فعل (سقى) بالفاء يؤذن بأنه بادر فسقى لهن، وذلك بفور وروده ...رأفة بهما وغوثًا لهما، وذلك من قوة مروءته أن اقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من الإعياء عند الوصول. والتولي: الرجوع على طريقه، وذلك يفيد أنه كان جالسًا من قبل في

---

(١) "دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى -عليه السلام-"، طاهر أحمد محمد الريامي، مج ٤- ع١٤- ٥٥٤، وما بعدها، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الأندلس للعلوم والتقنية، اليمن، يونيو ٢٠١٧م.

ظل فرجع إليه، ويظهر أن تَوَلَّى مُرَادِفُ (وَلَّى)، ولكن زيادة المبنى من شأنها أن تقتضي زيادة المعنى فيكون تولى أشد من (وَلَّى) ...

وقد أعقب إيواءه إلى الظل بمناجاته ربه إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. لما استراح من مشقة الْمَتْحِ[1] وَالسَّقْيِ لماشية المرأتين والاقتحام بها في عدد الرعاء العديد، ووجد برد الظل تذكر بهذه النعمة نعمًا سابقة أسداها الله إليه من نجاته من القتل وإيتائه الحكمة والعلم، وتخليصه من تبعة قتل القبطي، وإيصاله إلى أرض معمورة بأمة عظيمة بعد أن قطع فيافي ومفازات، تذكر جميع ذلك وهو في نعمة برد الظل والراحة من التعب؛ فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء وهي: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. والفقير: المحتاج، فقوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ شكر على نعم سلفت. وقوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ ثناء على الله بأنه معطي الخير. والخير: ما فيه نفع وملاءمة لمن يتعلق هو به، فمنه خير الدنيا، ومنه خير الآخرة الذي قد يرى في صورة مشقة، فإن العبرة بالعواقب .. وقد أراد النوعين كما يرمز إلى ذلك التعبير عن إيتائه الخير بفعل أنزلت المشعر برفعة المعطى. فأول ذلك إيتاء الحكمة والعلم.

ومن الخير إنجاؤه من القتل، وتربيته الكاملة في بذخة الملك وعزته، وحفظه من أن تتسرب إليه عقائد العائلة التي ربي فيها فكان منتفعًا بمنافعها مُجَنَّبًا رذائلها وأضرارها. ومن الخير أن جعل نصر قومه على يده، وأن أنجاه من القتل الثاني ظلما، وأن هداه إلى مَنْجًى من الأرض، ويسر له التعرف ببيت صلاح وخير، وأن آواه إلى ظل. و (مَا) من قوله: ﴿لِمَا أَنْزَلْتَ

(١) الْمَتْح معناه: استخراج الماء من البئر. يراجع: " معجم مقاييس اللغة"، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٢٩٣/٥)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

إِلَيَّ﴾ موصولة كما يقتضيه فعل الْمُضِيِّ في قوله: أَنْزَلْتَ؛ لأن الشيء الذي أنزل فيما مضى صار معروفا غير نكرة، فقوله ﴿مَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ﴾ بمنزلة المعرف بلام الجنس لتلائم قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ أي فقير لذلك النوع من الخير، أي لأمثاله. وأحسن خير للغريب وجود مأوى له يطعم فيه ويبيت، وزوجة يأنس إليها ويسكن»[١] .

ولصدق موسى عليه السلام، وحسن ظنه بربه، وثقته فيه، واعتصامه به سبحانه في هذا المقام الجليل والمشهد العظيم؛ عَجَّلَ الله تعالى بفرجه واستجابته له؛ وذلك بإلهام والد الفتاتين أن يرسل ابنته وراءه؛ لإنزاله عنده، وتزويجه من ابنته؛ ومن ثم يتحقق له الأنس في دار الغربة، والمأوى، والعشير الصالح، فقال سبحانه: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] . والفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ﴾ فاء التعقيب، أي لما دعا موسى عليه السلام، وبينما لا يزال جالسًا في المكان الذي دعا فيه ربه تعالى؛ إذ بإحدى الفتاتين ترجع إليه بالبشرى.

وقد سبق أن من عادات القرآن أنه يطوي التفاصيل، ويركز على المهم من الأحداث، وهنا يركز القرآن على خلق الحياء التي اتصفت به البنت التي جاءت إلى موسى عليه السلام: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾. ولفظ (الاستحياء): يدل على المبالغة في الحياء، ومع أن الفعل: ﴿فَجَاءَتْهُ﴾ كان يغني عن الفعل: ﴿تَمْشِي﴾. الذي جاء بعد ﴿فَجَاءَتْهُ﴾. إلا أن النص القرآني جاء به ليبني عليه قوله: ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾. والغرض من ذلك: وصف هيئة المجيء وما عنده من الاستحياء التام، إضافة إلى ما يدل عليه الحرف: ﴿عَلَى﴾ من

(١) "التحرير والتنوير"، (١٠١/٢٠، وما بعدها، بتصرف يسير واختصار) .

الاستعلاء للتمكين من الوصف، أي جاءت الفتاة مُسْتَحْيِيَةٌ فِي مَشْيِهَا، فقد تمكن الحياء منها، وتعمق في أحاسيسها ووجدانها، وملأ عليها وجودها وهي في طريقها إلى موسى عليه السلام، وكأن هذا الخلق ليس حالة نفسية شعورية، وإنما هو طريق مذلل محسوس ملموس، طريق تمشي عليه هذه الفتاة الحيية مشيًا، وتطؤه بقدميها الحييتين وطئًا. وجملة: ﴿قَالَتْ﴾. بدل من ﴿فَجَاءَتْهُ﴾ وإنما بينت له الغرض من دعوة أبيها له: مُبَادَرَةً بالإكرام .. وتأكيدها الجملة في: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. حكاية لما في كلامها من تحقيق الخبر للاهتمام به وإدخال الْمَسَرَّةِ عَلَى الْمُخْبَرِ بِهِ[1].

جاءت الفتاة إلى موسى عليه السلام تحمل له رسالة من أبيها؛ وكانت فتاة ذكية حذرة، دقيقة واضحة في انتقاء كلماتها التي تبلغ بها رسالة أبيها لموسى عليه السلام: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. ولم تقل له تعال معي إلى البيت، فالذي يدعوه إلى البيت هو أبوها، وليس هي؛ وذلك منعًا لأية شبهة، وقطعًا لدابر كل ريبة، وأوضحت له سبب دعوة أبيها، وهو: مكافئته على إحسانه إليهما.

وظاهر من سياق الآية أنه لم يجر حوار مطول بينهما حينما بلغته رسالة أبيها، بل إن موسى عليه السلام لم يرد على كلامها بكلام، وإنما قام وذهب معها، ويظهر أنها سارت أمامه لتدله على الطريق، فطلب موسى عليه السلام منها أن تسير خلفه، لئلا يرى منها ما لا يحب أن يراه، فقد ينكشف أجزاء من جسمها، أو تتجسم بعض أجزاء جسمها؛ بسبب الرياح أو المشي، وهذا

---

(١) "التحرير والتنوير"، (١٠٣/٢٠)، و"القصص القرآني.. عرض وقائع وتحليل أحداث"، صلاح الخالدي"، (٣٣٣/٢) .

من عظيم أخلاقه، وجلال صفاء روحه، ونبل نفسه، وطهارة مشاعره[(١)]؛ فكان له ما أراد، وقد ورد هذا المعنى في حديث للنبي - عليه الصلاة والسلام - عند الإمام الطبراني في معجمه: "الصغير"[(٢)].

وصل موسى عليه السلام مع الفتاة إلى بيت أبيها، فوجد الشيخ الكبير الوقور الكريم في استقباله؛ فأحس موسى عليه السلام ناحيته باطمئنان وأُنس، وكان من عوائدهم في مدين أنه إذا وصل الضيف أن يفاتحوه بالسؤال عن حاله وسبب مقدمه؛ لذا قص موسى عليه السلام عليه القصص بداية من اسمه ونسبه الذي يصل إلى إبراهيم، ومولده، وما حدث له من أحداث مصاحبة لمولده، مرورًا بنشأته في قصر فرعون، وقتله القبطي خطئًا، وتآمر فرعون وملئه عليه، وختامًا بخروجه من أرض مصر إلى أرض مدين، وفضل الله عليه في كل لحظات حياته؛ فطمأنه الرجل، وبشره أنه أصبح في مأمن من فرعون وملئه؛ لأن بلاد مدين ليست تابعة لفرعون، وإنما هي تابعة لِمُلْكِ الكنعانيين، وهم أهل بأس ونجدة[(٣)]، فاقترحت إحدى

---

(١) يراجع: "مفاتيح الغيب"، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، (٢٤/٥٩٠)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٢٠ هـ. و"القصص القرآني.. عرض وقائع وتحليل أحداث"، (٢/٣٣٦).

(٢) عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: " إِذَا سُئِلْتَ: أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ فَقُلْ: خَيْرَهُمَا وَأَتَمَّهُمَا وَأَبَرَّهُمَا، وَإِنَّ سُئِلْتَ: أَيُّ الْمَرْأَتَيْنِ تَزَوَّجَ؟ فَقُلْ: الصُّغْرَى مِنْهُمَا وَهِيَ الَّتِي جَاءَتْ، وَقَالَتْ: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] قَالَ: مَا رَأَيْتِ مِنْ قُوَّتِهِ؟ قَالَت: أَخَذَ حَجَرًا ثَقِيلًا فَأَلْقَاهُ عَنِ الْبِئْرِ، قَالَ: وَمَا الَّذِي رَأَيْتِ مِنْ أَمَانَتِهِ؟ قَالَتْ: قَالَ: امْشِي خَلْفِي وَلَا تَمْشِي أَمَامِي». أخرجه الطبراني في "المعجم الصغير"، ح رقم: (٨١٥).

(٣) يراجع: "مفاتيح الغيب"، (٢٤/٥٩١، وما بعدها)، و"التحرير والتنوير"، (٢٠/١٠٤).

الفتاتين على أبيها أن يستأجره، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] . وطلب البنت من أبيها استئجار موسى عليه السلام فيه استعطاف لأبيها أن يعرض على موسى عليه السلام أن يعمل لديهم؛ حتى يخفف عنها وعن أختها عبء العمل التي تقوم به هي وأختها؛ وعللت طلبها بـ ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾. مما يدل على رجاحة عقلها، وقوة ملاحظتها، وحسن فراستها، فقد لاحظت قوته عندما سقى لهما - رغم أنه قد أتى من سفر طويل شاق، ظاهرًا عليه أمارات التعب والإجهاد-، وعرفت أمانته من حواره معها هي وأختها في أول لقاء له معهما، وحين ذهبت إليه تدعوه لأبيها.

لقت مشورة البنت عند أبيها ترحيبًا ورضى، فعرض من فوره على موسى عليه السلام العمل عنده، وعرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٦] . أي تعمل أجيرًا عندي ثماني سنوات، فإن أتممتها عشرًا فهذا فضل منك، ويكون هذا العمل بمثابة مهر للفتاة، فرضي موسى عليه السلام ووفي بأفضل الأجلين؛ فقد أخرج البخاري في: صحيحه بسنده إلى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الحِيرَةِ أَيَّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى، قُلْتُ: لاَ أَدْرِي، حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى حَبْرِ العَرَبِ فَأَسْأَلَهُ، فَقَدِمْتُ، فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: «قَضَى أَكْثَرَهُمَا، وَأَطْيَبَهُمَا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إذا قَالَ فَعَلَ»(١) . وهذا كله من تدبير الله تعالى للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي؛ فقد قدر الله

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، ح رقم (٢٥٣٨) .

تعالى على موسى عليه السلام محنة التآمر عليه؛ ليخرج من مصر إلى مدين؛ لتكون منحة من الله تعالى له.

فكانت السنوات العشر التي قضاها في مدين فترة إعداد روحي، وتدريب له على تحمل المشاق، والتهيئة للمهمة الكبيرة التي تنتظره، وهي مهمة الرسالة. وفي مدين أكرمه الله تعالى بزوجة طاهرة عفيفة من بيت مسلم صاحب دعوة، ملأت بيت موسى عليه السلام قناعة وهدوءًا وأخلاقًا عالية، وقد رشحها ماضيها قبل الزواج - قيامها على أمر بيت أبيها مع أختها، وفقهها، ورجاحة عقلها - بأن تكون زوجة نبي مثل موسى عليه السلام تقوم على بيته وتؤازره في دعوته(١).

(١) "المستفاد من تاريخ الدعوة"، (١٣٩/١، وما بعدها).

المبحث الثالث

مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من التكليف بالرسالة إلى هلاك فرعون وجنوده

تتضح مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه المرحلة فيما يلي:

أولًا: اصطفاء الله تعالى لموسى عليه السلام وتكليفه بالرسالة بعد إعداده لها:

التكليف بالرسالة أمر ضخم كبير شاق، كثير التبعات والجوانب؛ لذا فإن المكلف بالرسالة لابد له من زاد عظيم من الإدراك والتجارب المتنوعة المتعددة، والتذوق العالي، والمعرفة المتعمقة في واقع الحياة العملي، إضافة إلى تفضل الله تعالى عليه بهبته اللدنية، ووحيه وتوجيهه لقلبه وضميره. وتكليف موسى عليه السلام بالرسالة كان تكليفًا ضخمًا وشاقًا للغاية؛ فهو مرسل لأعتى طاغية في هذا الزمان، وأقواهم وأثبتهم ملكًا، وأشدهم سطوة، وأعرقهم حضارة، وأفظعهم ظلمًا للخلق واستعبادًا لهم، وأكثرهم علوًا في الأرض وفسادًا.

وهو مكلف من قبل ربه لاستنقاذ طائفة من الناس قد شربوا الذل والهوان على يد فرعون وزبانيته حتى ألفوا طعمه واستطيبوا مذاقه، وتعودوا واستمروا عليه وأخضعوا وذلوا زمنًا طويلًا؛ حتى فسدت فطرهم البشرية وتعفنت، واستنقاذ أمة بهذه الصفات يحتاج إلى صبر عظيم، وعمل صعب عسير.

وهو مكلف بدعوة قوم لهم عقيدة قديمة، حادوا عنها، وأصبح تصورهم لها في غاية الفساد، فعقولهم وقلوبهم فيها من الرواسب الباطلة ما فيها، وعلاج هذه العقول والقلوب أمر في غاية الصعوبة والمشقة.

فالحاصل أنها مهمة عسيرة؛ لأنه مكلف أن يبني أمة، وأن يصلح الانحرافات المتأصلة والمتجذرة فيها، بعد إزالة الشوائب والرواسب، ومخلفات الهدم القديمة المتراكمة،

والرجس والدنس، وما يعترضه من عقبات وعراقيل -داخلية وخارجية - من طريقه، وبناء الأمم - خاصة أمة بني إسرائيل - أمر ليس بالسهل اليسير، ولكنه شاق عسير.

لذا كان من التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في هذه المرحلة أن تكون السنوات العشر التي قضاها في مدين فاصلة بين فترة العيش الهني، والطعام الشهي، والمركب الوطي، والملابس الفاخرة في قصر فرعون، وفترة العمل العسير والجهد المضني في الدعوة إلى الله تعالى، وما يتبع ذلك من تكاليف شاقة؛ فإن لحياة الرفاهية في القصور تأثيرها السلبي على النفس - مهما كانت هذه النفس-، وإن التكليف بالرسالة والدعوة إلى الله تعالى فيه معاناة للمجتمع البشري الذي عادة ما يكون فيه الصالح والطالح، والطيب والخبيث، والغني المرفه والفقير المعدم، والقوي والضعيف، والخير والشرير...إلخ.

وعادات الفقراء والبائسين في حياتهم تثقل على نفوس المرفهين الذين تربوا في القصور؛ ومن ثم لا تستطيع الصبر طويلًا على الحرمان والخشونة والمشقة عند معاناتها وعلاجها في واقع الحياة.

لهذا كان للتدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي دوره في نقل موسى عليه السلام من حياة القصور، والزج به في مجتمع الرعاة، ومع ذلك يجعله يستشعر بالنعمة في هذه الحياة الجديدة التي مَنَّ الله بها عليه بعد عناء الخوف والمطاردة، والجوع والشدة؛ ومن ثم يكون راضيًا غير ساخط، ويعيش عيشة الفقراء؛ فلا يتأفف من حياتهم وعاداتهم وما جبلوا عليه؛ ليكون ذلك مرانًا وتدريبًا له على تكاليف الرسالة قبل تكليفه بها.

فلما آتت التجربة أكلها، وأثمرت مع موسى عليه السلام ثمرتها؛ رجع موسى بأهله من مدين بعد أن أتم بها السنوات العشر إلى أرض مصر؛ سالكًا الطريق الذي سلكه من مصر إلى مدين قبل ذلك خائفًا جائعًا وحيدًا طريدًا؛ حتى يكون خبيرًا بالطريق الذي سيقود فيه بني إسرائيل بأمر الله تعالى؛ بسبب ما تعرضوا له من ذل وظلم وتسخير، لدرجة فقدهم القدرة على

التفكير؛ فلا يعوِّل على غيره حتى في شأن المعرفة بالطرق والدروب؛ وهذا كله من التدبير الإلهي للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي، وصدق الله تعالى القائل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] . حتى أصبح موسى عليه السلام مهيئًا لتلقي التكليف بالرسالة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ...الآيات﴾ [القصص: ٢٩: ٣٢] .

موسى عليه السلام الآن في طريق عودته إلى مصر، ولما سار بأهله في طريقه، والوقت ليل، والجو ظلمة؛ ضل الطريق، وهنا رأى موسى عليه السلام نارًا بجانب جبل الطور، فأخبر أهله بوجود النار، وهذا يعني أنهم لم يروها كما رآها هو، فهو أمر خاص به، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. فقد رجا أن يجد عند النار حلًا لما هم فيه، فلعله أن يجد أحدًا عند النار يسأله عن الطريق إلى مصر، فإن لم يجد أحدًا أتى بجذوة من النار يتدفؤون عليها في هذه الليلة الباردة.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾: أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾. فهذا يدل على أن موسى عليه السلام قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في الجبل مما يلي الوادي، فوقف مبهوتًا، فناداه الله تعالى: ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وذكر القرآن الكريم الوادي الذي نادى فيه موسى عليه السلام، وسمع موسى عليه السلام فيه كلام الله تعالى، وهذا الوادي اسمه: (طوى)، قال تعالى في سورة طه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] . وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦] . ووادي طوى يقع بجانب جبل الطور في سيناء، وكانت الشجرة في سفح جبل الطور، ورأى النار فيها عن بُعْد، وجانب الطور: هو الجانب الأيمن من جبل الطور، وجانب الطور الأيمن الغربي الذي فيه الشجرة المباركة هو نفسه

جانب الوادي الأيمن.

وتصور هذا المكان على النحو التالي:

لما وصل موسى بأهله إلى وادي طوى وجبل الطور، سار هو في وادي طوى، ووجَّه وجهه نحو مصر، وجعل جبل الطور عن يمينه، وبذلك كان جانب وادي طوى عن يمينه أيضًا، وهو شاطئ الوادي الأيمن، وكانت الشجرة المباركة على يمين موسى ﷺ، فهي على شاطئ وجانب الوادي الذي هو في جانب جبل الطور الأيمن[1].

في هذا المكان المبارك نادى الله تعالى موسى ﷺ، وقال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: وربوبية الله تعالى للعالم «تتضمن تصرفه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه، كل ساعة في شأن؛ يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته؛ وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه»[2]. ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾. أمره أن يرمي عصاه من يده على الأرض، ففعل، فإذا بها تتلوى على الأرض كأنها جان، فولى هاربًا لا يلتفت وراءه، وهو الشجاع الذي لا يخاف، فيناديه الله تعالى: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾. «وهذا أبلغ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف؛ فإن قوله: ﴿أَقْبِلْ﴾. يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل في الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾. أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه

---

(١) يراجع: "التحرير والتنوير"، (٢٠/١١٢)،

(٢) "الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة"، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، (٤/ ١٢٢٣)، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة – الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م.

خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾. فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنا، واثقا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية، أراه اللّه إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون أجرأ له، وأقوى وأصلب»[(١)].

وبعد أن شاهد موسى عليه السلام هذه المعجزة بعينيه، أعاد الله تعالى الحية عصًا كما كانت، وشاء الله تعالى أن يقدم له معجزة أخرى كدليل قدرة الله تعالى ووحدانيته، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون، كما أخبر النبي ﷺ، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام، رَجُلٌ آدَمُ طُوَالٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ»[(٢)]. ومعنى (آدَمُ): أسمر اللون. فأمره الله تعالى أن يدخل يده السمراء في جيبه ويخرجها؛ فإنها ستخرج بيضاء ناصعة البياض، وليس هذا البياض عن برص أو بهاق أو مرض آخر، وإنما معجزة من الله تعالى.) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (.

قال الإمام الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) - رحمه الله-: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾. قلت: فيه معنيان، أحدهما: أنّ موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية: فزع

---

(١) " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، (٦١٥)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه"، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات، وفرض الصلوات، ح رقم (١٦٥) .

واضطرب، فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له: إنّ إتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء. فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح: اليد؛ لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى، فقد ضمّ جناحه إليه. والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه: تجلده وضبطه نفسه. وتشدّده عند انقلاب العصا حية؛ حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما؛ وإلا فجناحاه مضمومتان إليه مشمران ... ومعنى قوله: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾. من أجل الرهب، أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك: جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه.

ومعنى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ وقوله: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ على أحد التفسيرين: واحد. ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرّر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء، وفي الثاني: إخفاء الرهب. فإن قلت قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضمومًا وفي الآخر مضمومًا إليه، وذلك قوله: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، وقوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] . فما التوفيق بينهما؟ قلت: المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه: اليد اليسرى، وكلّ واحدة من يمنى اليدين ويسراهما: جناح. ومن بدع التفاسير: أنّ الرهب: الكم بلغة حمير، وأنهم يقولون: أعطني مما في رهبك، وليت شعري كيف صحته في اللغة؟ وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضي عربيتهم؟ ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية؟ وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا

زُرْمانِقة[1] من صوف لا كمي لها.

﴿فَذَانِكَ﴾ قرئ مخففاً ومشدّداً، فالمخفف مثنى ذاك. والمشدّد مثنى ذلك،) بُرْهَانَان (حجتان بينتان نيرتان. فإن قلت: لم سميت الحجة برهانا؟ قلت: لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء: بَرَهْرَهة، والدليل على زيادة النون قولهم: أبره الرجل، إذا جاء بالبرهان. ونظيره تسميتهم إياها سلطان من السليط وهو الزيت، لإنارتها»[2].

إذن فهذا هو التكليف والتشريف بالرسالة إلى فرعون وملئه، وهو وعد الله تعالى الذي لا يخلف وعده لأم موسى عليه السلام الذي فاتت عليه السنون حينما قال لها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] . وهذا الذي حدث هو تهيئة وتدريب عملي لموسى على استخدام المعجزات التي تدلل على صدقه أمام فرعون؛ حتى لا يحدث له خوف أو فزع أو رهبة حين استخدامها أمامه؛ فيكون ثابتًا مطمئنًا أمامه .

ثانيًا: إعانة موسى عليه السلام ومناصرته بأخيه هارون عليه السلام:

استشعر موسى عليه السلام ثقل المهمة التي كُلف بها، وتذكر قتله للقبطي، وأنه خرج من مصر طريدًا بعد ما تآمروا على قتله، وهو في حضرة ربه ورعايته وكرمه ومَنّه عليه، فخاف أن يقتله فرعون بسبب فعلته؛ ومن ثم تنقطع الرسالة، فطلب من ربه أن يعينه ويؤيده ويناصره بتكليف أخيه هارون عليه السلام بالرسالة؛ لأنه أفصح من موسى عليه السلام لسانًا، ومن ثم يكون: ﴿رِدْءًا﴾ معاونًا على أمره أن يصدقوه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۞

---

(١) زُرْمانِقة: جُبَّة من صوف، وهي عجمية معربة. يراجع: " النهاية في غريب الحديث والأثر"، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، (٧٣٤/٢)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

(٢) "الكشاف"، (٤١٢/٣، وما بعدها) .

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣: ٣٤] .. فاستجاب الله تعالى له بإرسال أخيه هارون معه، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥] ..

قال فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) - رحمه الله -: «اعلم أن العضد قوام اليد وبشدتها تشتد، يقال في دعاء الخير: شد الله عضدك، وفي ضده: فَتَّ الله في عضدك. ومعنى سنشد عضدك بأخيك: سنقويك به، فإما أن يكون ذلك؛ لأن اليد تشتد لشدة العضد، وَالْجُمْلَةُ تَقْوَى بِشِدَّةِ اليد على مزاولة الأمور، وإما لأن الرَّجُلَ شُبِّهَ باليد في اشتدادها باشتداد العضد، فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة. أما قوله ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾. فالمقصود: أن الله تعالى آمنه مما كان يحذر، فإن قيل: بين تعالى أن السلطان هو بالآيات، فكيف لا يصلون إليهما لأجل الآيات؟ أو ليس فرعون قد وصل إلى صلب السحرة؟ وإن كانت هذه الآيات ظاهرة، قلنا: إن الآية التي هي قلب العصا حية كما أنها معجزة فهي أيضا تمنع من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهارون - عليهما السلام -؛ لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة، وإن أراد إرسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما، فصارت مانعة من الوصول إليهما بالقتل وغيره، وصارت آية ومعجزة، فجمعت بين الأمرين، فأما صلب السحرة ففيه خلاف؛ فمنهم من قال ما صلبوا، وليس في القرآن ما يدل عليه، وإن سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾. فالمنصوص أنهم لا يقدرون على إيصال الضرر إليهما، وإيصال الضرر إلى غيرهما لا يقدح فيه، ثم قال: ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾. والمراد إما الغلبة بالحجة والبرهان في الحال، أو الغلبة في الدولة

والمملكة في ثاني الحال، والأول أقرب إلى اللفظ»[١].

ثالثًا: موسى وهارون - عليهما السلام - في مواجهة فرعون بآيات الله البينات:

كعادة القرآن الكريم؛ فإنه طوى الزمان والمكان، حتى يقف سريعًا مع المهم من الأحداث، فإذا موسى وهارون -عليهما السلام - يدخلان على فرعون لدعوته إلى الله تعالى، وقد استخدما آيات الله تعالى البينات للتدليل على صدقهما، وإذا الحوار يدور بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر؛ بين الداعيتين إلى الله تعالى رب العالمين وبين الطاغية الطاغوت الذي يدعي الألوهية ويمارس الربوبية من دون الله تعالى رب العالمين! قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [القصص: ٣٦]. ومع ذلك فإنهم قابلوا الحق بآياته الواضحات بالظلم والعلو والعناد: ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

قال الإمام الطبري - رحمه الله تعالى-: «يقول تعالى ذكره: فلما جاء موسى فرعون وملأه بأدلتنا وحججنا بينات أنها حجج شاهدة بحقيقة ما جاء به موسى من عند ربه، قالوا لموسى: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر افتريته من قبلك وتخرّصته كذبا وباطلا ﴿مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي تدعونا إليه من عبادة من تدعونا إلى عبادته في أسلافنا وآبائنا الأولين الذين مضوا قبلنا»[٢].

رابعًا: حتمية وجود المنهج الإصلاحي مع حتمية وجود حملة لهذا المنهج:

كان رد فرعون على دعوة موسى وهارون - عليهما السلام - له، وما جاءا به من آيات

---

(١) " مفاتيح الغيب"، (٥٩٧/٢٤).

(٢) " جامع البيان في تأويل القرآن"، (٥٧٩/١٩).

بينات: أن هذا سحر مفترى، وأنهم لم يسمعوا بمثله فيمن سبق من أسلافهم؛ فرد عليهم موسى عليه السلام فقال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧] . وهذا الرد من موسى عليه السلام في غاية الأدب والتواضع، وهو يعتمد على التلميح لا التصريح، وفي الوقت ذاته ليس تمييعًا للقضية، فهو رد واضح يملؤه الثقة في الله تعالى وفي المنهج الذي جاء به من عند الله تعالى، وسنة الله ماضية في أهل الحق؛ فإن عاقبة الدار مكفولة لهم، وهي كذلك ماضية في أهل الباطل والغواية؛ فإنهم في الآخرة لا يفلحون، وهي سنة لا تتبدل ولا تتغير.

قال محمد المكي الناصري (ت: ١٤١٤هـ): «وهذه لهجة خالية من المباهاة والعناد، مرغوب في استعمالها عند القيام بالدعوة والإرشاد»(١) والآية تتضمن ردًا من موسى عليه السلام في قضية مسلمة؛ وهي: أنه لابد من وجود رسالة لله في الناس، ولابد من حملة للمنهج الإلهي بين الناس، وقد أشار موسى لهذا في رده على فرعون، وسنة الله تعالى الماضية في الناس أن رحمته سبحانه إنما تكون في واقعها العملي بالتغيير، والتغيير لا يكون إلا بوجود منهج إصلاحي، وهذا المنهج الإصلاحي لابد أن يحمله رجال ربوا التربية الإيمانية التي تجعلهم عبادًا لله تعالى بحق، يصلحون الأوضاع الفاسدة بمنهج الله تعالى لا بسواه، إذ لا يكون إصلاح من فراغ(٢).

خامسًا: انقلاب السحر على الساحر:

---

(١) "التيسير في أحاديث التفسير"، محمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٢) يراجع: "المستفاد من تاريخ الدعوة"، (١/١٣٧) .

الفساد -كل الفساد- يكون حينما لا تتمحض العبودية في حياة الناس لله تعالى، ويسلمون زمام أمورهم للمهازيل من البشر يتحكمون فيهم على حسب أهوائهم.

ولقد أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون ليدعوه إلى توحيد الله تعالى، وأن يرسل معه بني إسرائيل الذين يستعبدهم، ويتفنن في إذلالهم؛ حتى يتفرغوا لعبادة الله تعالى، فهم عبيد لله تعالى وحده، وفرعون ليس شريكًا مع الله تعالى حتى يستعبدهم؛ وبناءًا على هذه الحقيقة طلب موسى عليه السلام من فرعون تحرير بني إسرائيل من أسر شهواته وأهوائه، قال جل جلاله: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥] . ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (...) فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. فالآية الأولى عبارة عن مقدمة، والثانية نتيجة لهذه المقدمة؛ فهما متلازمتان.

وفرعون وملئه يعلمون يقينًا أن هذا الإعلان: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. يتضمن هدم ملكهم، فإذا استطاعوا أن يظهروا كذب موسى عليه السلام؛ فإنهم سينجحون في إسقاط دعوته، ولن تكون لها شأن، ولن تمثل بعد ذلك خطرًا عليهم؛ لذا قال له فرعون: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦] . فكانت المفاجأة: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨] .

وفرعون وملئه يعلمون أيضًا أن الأرض لله والعباد لله؛ ومن ثم إذا دان العباد لله رب العالمين وحده لا شريك له، حينها يُرد الأمر لله، وينتهي حكم فرعون الذي نصب نفسه إلهًا من دون الله؛ فهم يدركون جيدًا خطر دعوة موسى عليه السلام عليهم. لقد صدق الرجل العربي حين قال بفطرته السليمة لما سمع النبي ﷺ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا

رسول الله: «إذن تحاربك العرب والعجم»، وقال له آخر: «لعل هذا الأمر الذي تدعونا اليه مما تكرهه الملوك»(١) . لذلك قالوا بعد ما تشاوروا في شأن موسى عليه السلام ودعوته: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠] ومن ثم قرروا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١١، ١١٢] . فأرجئوا موسى وأخاه عليهما السلام إلى موعد؛ حتى يتسنى لهم دعوة كبار السحرة الذين يحترفون السحر، والذين يقرون فرعون على ما يفعل باسم الدين، مقابل أعطيات فرعون التي يغدق بها عليهم.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤] . وعدهم فرعون بالأعطيات، وأن يجعلهم من المقربين إن كانت لهم الغلبة، لكنهم لا يعلمون أن الأمر ليس احتراف مهنة السحر وتضليل الناس، ولكن الأمر هنا هو المعجزة من الله الذي لا يقهر، ولا يُغلب جنده ولا يُهزم أولياؤه.

لقد انتقلت الدعوة من مرحلة إلى مرحلة؛ من مرحلة دعوة فرعون وملئه في قصره إلى مرحلة جماهيرية في ساحة كبرى، والذي حشد الجماهير لموسى عليه السلام هو فرعون وملئه، لقد حشدهم لأمر، ولكن الله تعالى قدر أمرًا آخر.

توجه السحرة إلى موسى عليه السلام وهم في كامل الثقة في أنفسهم وفي سحرهم، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] . ويقابلهم موسى عليه السلام بثقة أعظم من ثقتهم وأجلّ، فقال لهم مستهينًا بهم ﴿أَلْقُوا﴾ [الأعراف: ١١٦] . كلمة واحدة تدل على أن موسى عليه السلام لا يبالي بهم ولا بسحرهم، ولكن موسى عليه السلام فوجئ بسحر عظيم،

---

(١) "البداية والنهاية"، (١٤٤/٣).

لدرجة أن موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة، مما يدل على أن السحر كان بالفعل رهيبًا عظيمًا كما ذكر القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] . وقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: ٦٧] . لكن المفاجأة الكبرى التي سيتفاجأ بها فرعون وملئه، وسيتفاجأ بها السحرة، وسيتفاجأ بها الجماهير - في الساحة الكبرى هذه - التي شهدت هذا السحر العظيم: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨] . ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] . وثمة مفاجأة كبرى في هذا المشهد المهيب الذي يحبس الأنفاس وهي: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨: ١٢٢] . والسحرة أعلم الناس ساعتها بما هو سحر من أعمال البشر، وما هو فوق مقدور البشر، ولا يستطيعه أحد من البشر.

لقد جاء هؤلاء السحرة طمعًا في أعطيات فرعون، ولم يعلموا أنهم على موعد مع عطاء الكريم الوهاب جل جلاله الذي لم يكونوا يتوقعونه ولا يحتسبونه.

لقد جمع فرعون الناس في ساحة كبرى، وفي مشهد رهيب، وأتى بالسحرة ليثبت للناس كذب موسى عليه السلام، ومن ثم سقوط دعوته، وتثبيت أركان حكمه هو، وتحكمه فيهم أكثر وأكثر، وإذا بكل ما فعل ينقلب عليه، ولا يكون له ما أراد، بل الذي أراده الله تعالى رب العالمين، لذا كانت هذه المفاجأة التي زلزلت عرشه من تحته، وهي: إيمان السحرة بموسى عليه السلام وتصديقه فيما أتى به من قبل الله تعالى. والسلطان والعرش في نظر فرعون هما كل شيء، وفي سبيلها يفعل أي شيء؛ لذلك قال للسحرة: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣] . وكأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تخالط قلوبَهم بشاشةُ الإيمان، أو أن يستأذنوه أن يتسرب نور الإيمان إلى قلوبهم، أو يستأذنوه أن تلمس قلوبَهم حرارةُ الإيمان،

وهم أصلًا لا يملكون زمام قلوبهم ولا مداخلها.

لقد فوجئ فرعون بإيمان السحرة الذي لم يشعر هو به كما شعر به السحرة، ولم يذق طعمه كما ذاقوه، فقال لهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤]. وفي نص آخر: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١] . لقد كان هؤلاء السحرة من وقت قليل في صف فرعون، وهم الآن في صف موسى وهارون – عليهما السلام–، لقد كانوا من وقت قليل في صف الكفر والباطل، وهم الآن في صف الإيمان والحق، لقد كانوا من وقت قليل يمثلون كهنة الديانة الوثنية التي تجعل فرعون إلهًا من دون الله تعالى وتمكنه – باسم الدين – من رقاب الناس؛ ومن ثم جن جنون فرعون وأطلق توعده الوحشي قائلًا: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وذلك حينما عجز عن مواجهة موسى وهارون – عليهما السلام–، ومعهما السحرة بالحجة والبراهين؛ لكن لا يمكن لقلب خالطه الإيمان الصادق أن يأبه لما توعد به فرعون، فقالوا له أمام الجماهير الحاشدة المتجمعة للأمر الجلل: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥] . وفي نص آخر: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٦: ٧٢] . فلم يطلبوا منه العفو والسلامة من الأذى، ولكنهم طلبوا من الله تعالى الصبر والوفاة على الإسلام: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وفوجئ فرعون أمام هذا الإيمان الصادق أنه لا يمكن له أن يتصرف في القلوب تصرفه

في الأجسام؛ إنه موقف الاستعلاء بالعقيدة الذي يهب الحرية للمضطهدين والمستعبدين، وهؤلاء السحرة ولدت حريتهم حين عجز فرعون عن السيطرة على قلوبهم واستذلالها؛ حتى وإن كان يملك السيطرة على أجسامهم ورقابهم.

لقد كان السحرة على قلب رجل واحد، وكان ردهم على فرعون أمام الجماهير الحاشدة معبرًا عما جاشت به صدورهم، وما كانت تنطق به ألسنتهم، فكأنهم في عجالة أجمعوا أمرهم على أن يكون ردهم عليه هكذا؛ مما كان له أثره في هز كيان فرعون من ناحية، وضعف ثقة الجماهير فيه من ناحية أخرى؛ وفي هذا دليل على أن تَوَحَّد فكرة الدعاة وكلمتهم؛ لها أثرها الكبير في تثبيت الحق ونشره.

إن الدعاة إلى الله تعالى حين يسلمون قيادهم لربهم جل جلاله يسكب في قلوبهم نورًا تتسع به صدورهم، ويجري به الكلام على ألسنتهم، وكأنهم يقرأون من كتاب، وما هو من كتاب، ويهديهم ربهم إلى أقوم السبل، ويوصلهم إلى مرادهم من أيسر طريق، وهذا ما حدث للسحرة لما آمنوا - وهم الذين لم يتخرجوا من جامعة إسلامية-، فكانوا - بما سكب الله في قلوبهم، وأجرى على ألسنتهم - نعم الدعاة، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] . والقائل: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

إن الثبات على الحق أمام هياج الباطل وانتفاشه مبدأ ينبغي ألا يحيد عنه الدعاة إلى الله تعالى لا في مواقفهم ولا في كلماتهم؛ لأنهم ممثلون لهذا الدين الحق، وينبغي أن يكونوا الصورة العملية لما يحويه في كل زمان ومكان؛ ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا

يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] . وهذا ما أظهره لنا السحرة من موقفهم ومن كلامهم؛ وهذا له أثره الطيب في الدعوة والمدعوين[١] .

سادسًا: تكذيب موسى والتواصي بإلحاق الأذى به وبأتباعه:

لما جاء موسى عليه السلام بالآيات البينات إلى فرعون وملئه؛ لم يذعنوا له، بل اتهموه بأنه ساحر كذاب، ولم يكتفوا بذلك، بل تواصوا بإلحاق الأذى بكل من آمن به واتبعه، وكان لفرعون رغبة ملحة في قتله عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٣: ٢٧] . وهذا من مظاهر تدبير الله تعالى للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي، «فلولا تجبر فرعون وهو من قبيح الخلال؛ ما حل به وبقومه الاستئصال، ولما خرج بنو إسرائيل من ذل العبودية؛ وهذا مصداق المثل: مصائب قوم عند قوم فوائد وقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]»[٢] .

قال الحافظ بن كثير (ت: ٧٧٤هـ) – رحمه الله تعالى-: «﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله –عز وجل – أرسله إليهم: ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ

(١) يراجع: "تأملات دعوية في خطب الأنبياء وأتباعهم"، ا.د/ فرج محمد الوصيف، ص٧٨، وما بعدها، ط/٢، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م.

(٢) "التحرير والتنوير"، (٢٠/٦٦) .

آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ (. وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني: فهو لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. قال قتادة: هذا أمر بعد أمر، قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾. أي: وما مكرهم وقصدهم -الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل؛ لئلا يُنصروا عليهم - إلا ذاهب وهالك في ضلال»[1].

ويظهر من قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾. أن فرعون كان يجد معارضة في هذا الأمر، فلعل من عارض فكر وقدر، فرأى أن قتل موسى عليه السلام لا يحل الإشكال، بل إن قتله قد يعقد الأمور أكثر وأكثر، فقد يؤدي قتله إلى تقديس الجماهير له؛ ومن ثم تتحمس له وللدين الذي جاء به، وخاصة بعد الذي شاهدوه من إيمان للسحرة الذين عبروا عن إيمانهم أمام هذه الجماهير بأحسن تعبير حين واجهوا تهديدات فرعون لهم. وقد يكون من عارض هذه الفكرة شعر في نفسه أن إله موسى عليه السلام الذي يؤمن به قد ينتقم لموسى من قاتليه ومن المتآمرين عليه؛ حيث كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة؛ وقد يؤيد هذا قول فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾. ومما يُستظرف ويُستملح ويُستطرف: أن فرعون -الوثني الضال المضل - علل إرادة قتله لموسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾. إنها الكلمة التي يقولها كل مفسد عن كل داعية مصلح، إنها الكلمة التي تتكرر بتكرر التقاء الهدى والضلال، والصلاح والفساد، والحق والباطل؛ وصدق الله تعالى القائل:

---

(١) " تفسير القرآن العظيم"، (٤/٩٤) .

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات: ٥٣].

فما كان من موسى عليه السلام أمام هذا العتو والطغيان إلا أن التجأ إلى حمى الله تعالى العظيم، والحصن الحصين، والركن الركين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. قال الإمام الرازي - رحمه الله تعالى-: المعنى: أنه لم يأت في دفع شره إلا بأن استعاذ بالله، واعتمد على فضل الله؛ لا جرم صانه الله عن كل بلية، وأوصله إلى كل أمنية، وعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: أن لفظة ﴿إِنِّي﴾ تدل على التأكيد، فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور والآفات عن النفس: الاعتماد على الله، والتوكل على عصمة الله تعالى.

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ فكما أن عند القراءة يقول المسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم: أعوذ بالله؛ فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ والمعنى: كأن العبد يقول: إن الله سبحانه هو الذي رباني، وإلى درجات الخير رقاني، ومن الآفات وقاني، وأعطاني نعمًا لا حد لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أن قوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله، والمعنى فيه: أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جدًا، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات...

الفائدة الخامسة: أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة في الدعاء على

فرعون بعينه، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفًا بتلك الصفة، حتى يدخل فيه كل من كان عدوًا سواء كان مظهرًا لتلك العداوة أو كان مخفيًا لها.

الفائدة السادسة: أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران: أحدهما: كون الإنسان متكبرًا قاسي القلب. والثاني: كونه منكرا للبعث والقيامة، وذلك لأن المتكبر القاسي قد يحمله طبعه على إيذاء الناس، إلا أنه إذا كان مقرًا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعًا له من الجري على موجب تكبره، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلًا، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلًا فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء.

الفائدة السابعة: أن فرعون لما قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ قال على سبيل الاستهزاء ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾. فقال موسى عليه السلام إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير، وأنا أدعو ربي وأطلب منه أن يدفع شرك عني، وسترى أن ربي كيف يقهرك، وكيف يسلطني عليك. واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد علم أنه لا طريق أصلح ولا أصوب في دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله -والله أعلم-[1].

سابعًا: تقييض الله تعالى لعباده الصالحين حماة عند الشدائد لتسكين الفتنة وإزالة الشر:

بعد أن ذكر الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه عاذ بربه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، -وعياذه هذا هو في الحقيقة عياذ من فرعون الذي قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ - ذكر الله تعالى: أنه قيض لموسى عليه السلام رجلًا من آل فرعون يدافع عنه بغرض تسكين الفتنة وإزالة

(١) "مفاتيح الغيب"، (٢٧/٥٠٧، وما بعدها).

الشر، وقد احتوى دفاعه عن موسى ﷺ على ثلاثة أمور كبرى، هي:

الأول: استنكار قتل موسى ﷺ المؤمن بربه، المستضعف مع قومه، في مواجهة قوم فرعون.

الثاني: تحذيرهم بأس الله في الدنيا والآخرة في المكذبين للرسل، وهم جماعات الأحزاب كقوم نوح وعاد وثمود.

الثالث: تذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف ﷺ من تكذيب رسالته ورسالة من بعده[1].

قال الله تعالى مخبرًا عنه في سورة غافر ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۞ يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۞ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۞ وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ۞ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ

---

(١) "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج"، د/ وهبة الزحيلي، (١١٢/٢٤)، دار الفكر المعاصر- دمشق، ط/٢، ١٤١٨هـ.

اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥: ٣٨].

* ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: وصف القرآن الكريم لهذا الداعية بالرجولة هنا وصف تبجيل وتكريم وتشريف، والمراد بهذا الوصف هنا "الرجولة": المعنى المادي، والمعنى النفسي.

المعنى المادي: وهو كون هذا الداعية رجلًا، فهو رجل ذكر. والمعنى النفسي: وهو كون هذا الداعية يقف مواقف الرجال المشرّفة؛ التي تحتاج إلى رجولة، ولا يقدر عليها إلا الرجال من الذكور، فهناك من الذكور لا يعرفون هذه المعاني الرجولية ولا يقفون هذه المواقف.

إن هذا الداعية: ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾: والتنوين هنا مراد، فهو للتكريم، كما أنه للإبهام؛ فالعلم به لا ينفع، والجهل به لا يضر، ووصفه القرآن بأنه: ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: فهذا تحديد لنسبه، ... وكونه ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فيه إشارة إلى أنه من أصحاب النفوذ والوجاهة المقرّبين عند فرعون.

* ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾: وإيمان هذا الداعية صاحب هذه المكانة بموسى عليه السلام شهادة نجاح

لموسى في دعوته، حيث تمكن من الوصل بدعوته إلى قلب وعقل هذا القائد الفرعوني فأثر فيه، وأقنعه بدعوته والدخول في دين الله تعالى، وكذلك فإن إيمان هذا الداعية شهادة على نقاء نفس هذا الرجل وصفاء روحه، فرغم قربه من فرعون ونفوذه في نظامه؛ إلا أنه سمع لموسى عليه السلام بأذنه، وفتح قلبه لنور الإيمان، وفكر بعقله فيما يعرضه موسى عليه السلام عليه، واختار ما عند الله تعالى.

فلم تفسده البيئة الفرعونية بما فيها من كفر وظلم وطغيان، ولم تلوث فطرته النقية، فآمن بالله ربًا، وبموسى نبيًا ورسولًا، وكفر بفرعون؛ مما يدل على رجولته وجرأته وشجاعته في الحق، رغم علمه بفرعون، وبطشه وسطوته، وجبروته، وطغيانه، ومع ذلك آمن بالله واستعد لدفع ثمن هذا الموقف[(١)].

- السرية والجهرية في دعوة موسى عليه السلام:

وإخبار القرآن عن هذا الرجل أنه كان: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ فيه إشارة إلى أن دعوة موسى عليه السلام كانت سرية في بعض مراحلها، وأن بعض من آمن به كانوا يكتمون إيمانهم. فدعوة موسى عليه السلام أخذت جانبين:

الأول: الجانب العلني الجهري: وتمثل هذا في إمام الدعوة -موسى عليه السلام-، فكان تحركه للدعوة في العلن.

الثاني: الجانب السري الخفي: فكان بعض من آمنوا به يخفون إيمانهم، وقد أخبرنا القرآن عن ثلاثة من هؤلاء كانوا مقربين من فرعون، وهم: امرأة فرعون، والرجل الذي قام

---

(١) يراجع: "القصص القرآني"، (٤٨٩/٢، وما بعدها).

بمهمة إخبار موسى عليه السلام بائتمار الملأ به من أجل قتله، ومؤمن آل فرعون. وفي هذا دليل على جواز كتمان إيمان بعض المؤمنين في بعض الحالات الخاصة، ودليل على جواز سرية الدعوة في بعض الظروف، فإذا ما أسرّ بعض الدعاة دعوتهم؛ فلابد أن يعلن آخرون إيمانهم، وأن يعلنوا دعوتهم ويجهروا بها؛ ليقف الناس على تفاصيل الدعوة من خلال بعض "رموزها" المعلنين بها، فيتأسوا بهم، ويكون هؤلاء الذين جهروا بالدعوة على استعداد لدفع الأثمان الباهظة المترتبة على ذلك، فها هو موسى عليه السلام يجهر بإعلان دعوته وإظهار إيمانه، في الوقت الذي كان مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه؛ ومع أن هذا الرجل المؤمن كان يكتم إيمانه؛ إلا أنه اضطر الآن إلى إظهار إيمانه[١].

- سبب إظهار مؤمن آل فرعون إيمانه:

إن حياة قائد الدعوة - موسى عليه السلام - في خطر، وفرعون عازم على قتله، ومن ثم يتحتم على هذا الرجل المؤمن الذي يخفي إيمانه أن يحول بين فرعون وما يريد، ولا يمكن له أن يفعل ذلك إلا بإظهار إيمانه، وإذا أبدى إيمانه فسينكشف أمره، فماذا عليه أن يفعل؟ هل يبقى كاتمًا لإيمانه، محافظًا على مكانته في النظام الفرعوني، ولو قتل موسى فعليه رحمة الله؟ أم يعلن إيمانه وينتصر لموسى عليه السلام ويفقد كل امتيازاته؟ أخذ الرجل المؤمن الداعية بالخيار الثاني، فلم يكن له أن يفعل غير ذلك، فهذا ما يلائم إيمانه ورجولته، فقدم مصلحة الدعوة على مصالحه، بل إن مصالحه هو لا تكون إلا مع مصلحة الدعوة؛ -وفي هذا درس عظيم للدعاة إلى الله سبحانه في وجوب تقديم مصلحة الدعوة على مصالحهم الشخصية المادية،

---

(١) يراجع: "السابق"، (٢/٤٩٠، وما بعدها).

وفي وجوب التضحية بالمنافع الشخصية من أجل دعوتهم ودينهم–[1].

● المنهجية الدعوية في خطوات هذا الداعية:

حينما اضطر هذا الرجل الداعية لأن يكشف أوراقه؛ ليدافع عن إمام الدعوة وقائدها – موسى عليه السلام–، ويحول دون فرعون وما يريد، «خطا خطوات منهجية في غاية الحكمة والترتيب والتخطيط، وقدّم "بيانًا" دعويًا حكيمًا، وتمكن من إحراج فرعون وهزيمته، وأقام الحجة عليه وعلى قومه، وكان في ذلك كله ناجحًا نجاحًا كبيرًا.

فقد أنكر الرجل على قومه قتل موسى عليه السلام، وبيّن أنه لا ذنب إلا إيمانه بالله وهذا ليس ذنبًا: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

ودعا قومّه إلى التفكيرِ في مسألةٍ موسى بموضوعية، فموسى قد يكون صادقًا في دعوته، وقد يكون كاذبًا: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ . وهذا من حكمة الرجل المؤمن في خطابه، فقد كان موضوعيًا في طرحه، يدل على ذلك أنه بدأ باحتمال كون موسي عليه السلام كاذبًا، مع أنه يعلم يقينًا أنه رسولُ الله، ولكنه بدأ بهذا الاحتمال ليؤثّر في القلوب، ويقنع العقول، وليبنيَ عليه خطواته التالية.

فهو يقول لقومه: لماذا تقتلون موسى؟ هل لأنه يقول ربي الله؟ فكروا في دعوته، إنه قد يكون كاذبًا في دعواه! فإِنْ كان كاذبًا فلا يستدعى ذلك أنْ تقتلوه؛ لأنه هو الذي يتحملُ عاقبةَ كذبه، وأنتم لا تتأثرون بذلك!

---

(١) يراجع: "بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب بنت عبد اللطيف الكردي، ص٢١٧، تحقيق: محمد بن علي الصامل، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

وألا يمكنُ أنْ يكونَ صادقًا في دعواه؟ فكروا في ما يصيبكم إن كان كذلك! بَدَلَ أنْ تقوموا بقتله! إنه يعدكم بالعذاب والهلاك، فإن كان صادقًا وقتلتموه فإنّ العذاب والهلاك سيصيبكم ويقع بكم! ففكروا في إنصافٍ وموضوعية!

وبعد أنْ طرحَ أمامهم الاحتمالين -صدقه وكذبه-؛ رجح بطريق حكيم غير مباشر صدقه، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ .

وكأنه يقول لهم: موسى صادق؛ لأن الله تعالى أيده بالآيات والمعجزات، ولو كان كاذبًا لما أيده الله تعالى بذلك؛ لأن الله تعالى: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ .

- تحذيره قومه من زوال نعم الله تعالى عليهم:

وبعد أن خاطب عقولهم بموضوعية، استثار مصالحهم الدنيوية، ولمسهم لمسة مادية، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ . وذكرهم بنعم الله عليهم من ملك وسلطان، ورفاهية في الحياة، وحذرهم من الإقدام على ما يفكرون فيه وما يخططون له من قتل موسى بطريق غير مباشر، وكأنه يقول لهم: اليوم لكم الملك؛ وأنتم ظاهرون في الأرض منعمون فيها فإذا قتلتم موسى وكان صادقًا في أنه نبي رسول، فماذا سيفعل اللّهُ بكم؟ إنه سينتصر لنبيه، ويوقع بكم بأسه وعذابه، فهل تقدرون على دفع عذاب الله عنكم؟ إنه لا يوجد أحد ينصرنا من بأس الله!

ويلاحظ في كلمات هذا الداعية الحكيم: أنه لم يوجه كلامه لفرعون، وإنما وجه كلامه للقوم ولعلّ من أهدافه في ذلك أن لا يبدأ "بيانه" في احتكاك مباشر مع فرعون؛ حتى لا يثيره، والأهم من هذا أنه يريد أن يؤثر في القوم، وأن يكسبهم إلى جانبه، فهم المقصودون في كلامه.

وكان قاصدًا "تجاهُل" فرعون وعدم مخاطبته؛ لأنه لا يطمع في تغيير موقفه وكسبه إلى جانبه.

ومن حرصه على التقرب إلى قومه؛ أشرك نفسه معهم في دفع ثمن قتل موسى واستقبال عذاب اللّه، والعجز عن دفعه، وذلك في قوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ .

يقول لهم: أنا واحد منكم، ومصيرنا جميعًا واحد؛ فلنفكر معًا كيف نبتعد عن بأس الله وعذابه؟

- الخطاب الفرعوني الاستعلائي لهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾:

وكان فرعون حاضرًا المشهد، واستمع إلى كلمات الرجل المؤمن، وأدرك فرعون أثرها على القوم، وخشي أن ينجح المؤمن في التأثير فيهم، وكسبهم إليه؛ فاضطر فرعون إلى التدخل، والتصريح بأن الحق لا يكون إلا معه، ولهذا خاطبهم بمنتهى الاستعلاء والتكبر: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ .

لقد أظهر الرجل المؤمن فرعون على حقيقته مستعليًا متكبرًا جبارًا، فتخلى عن تمثيله السابق في إظهاره التقرب إلى قومه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، وأعلن لهم: أن الرأي رأيه، والكلام كلامه، والهدي هديه، وأنهم ملزمون بأخذ رأيه، ولا يجوز لأحد مخالفته في رأيه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ...﴾ .

إن فرعون يضيق بالرأي المخالف، ولا يتحمل الحوار والمناقشة، ولا يرضى أن ينظر في ما يورده الطرف الآخر من حجج وآيات، إنه مصرّ على رأيه وموقفه، وغير مستعد للتراجع عنه.

ماذا كان رد فعل المؤمن الداعية على التكبر الفرعوني، وعلى تهديده لكل مَنْ يرى خلاف رأيه؟

لم يتأثر بتهديد فرعون غير المباشر؛ لأنه وطن نفسه على مواجهته وتصديه، واستعد للسير في ذلك حتى آخر الطريق، مهما كان الثمن.

- المؤمن الداعية يخوف قومه عذاب الله:

لم يلتفت الرجل المؤمن الدعية لفرعون، بل استمر في تجاهله له، واستمر في توجيه الكلام لقومه: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ .

تحبب المؤمن الداعية إلى قومه في قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ . وذلك ليؤثر فيهم، فهم قومه، وهو الحريص عليهم بصدق، الخائف عليهم من العذاب: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ .

وبالمقابلة والمقارنة بين خطاب الرجل المؤمن الداعية لقومه، وبين مخاطبة فرعون لقومه.

يظهر أن: فرعون يخاطب قومه بتكبر واستعلاء: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ .

بينما يتحبب الرجل الداعية المؤمن إلى قومه بلطف ومودة: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

ولمس الرجل الداعية المؤمن قلوب قومه لمسة تاريخية، حيث ذكرهم بمن كان قبلهم من الأحزاب والأقوام الكافرة، ودعاهم إلى التفكر بما جرى لهم، فلعل ذلك يدعوهم إلى تغيير موقفهم

إنه يصارحهم بخوفه عليهم من أن يعذبهم الله كما عذب قوم نوح وعاد والذين من بعدهم؛ وما عليهم إلا أن يؤمنوا بالله؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم.

وبعد أن لفت أنظارهم إلى الماضي، انتقل بهم إلى المستقبل، إلى الآخرة التي هم مُقدمون عليها، وصور لهم بعض ما ينتظرهم هناك من عذاب، قال لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

إنه يخوفهم من مشاهد وأهوال ذلك اليوم القادم، ويدعوهم إلى العمل على النجاة منها؛

وذلك عن طريق الإيمان. . ويقدم تخوفه عليهم بلهجة الإشفاق والحرص المعهودة منه: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ﴾ .

- الداعية المؤمن يذكرهم بموقفهم من يوسف عليه السلام:

ثم استخدم المؤمن الداعية مؤثرًا جديدًا لمس به قلوبهم وعقولهم وأضافه إلى ما سبق من المؤثرات، وظف فيه معلومة عقيدية تاريخية، تتعلق بالرسالة والنبوة، قال لهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ .

لقد توسم فيهم أن نصحه لهم قليل الجدوى، وأنهم ماضون في تكذيبهم لموسى؛ فسلك طريقًا آخر في دعوتهم، وهو: اللوم على ما مضى، وذكرهم بأنهم ذرية لقوم كذبوا نبي الله يوسف عليه السلام حينما جاءهم بالبينات؛ فتكذيب المرسلين عادة غالبة في أسلافهم، فتكون خلقًا وصفة فيهم.

فهو يذكرهم بأن تكذيب الرسل شنشنة موروثة لديهم من آبائهم وأجدادهم، فلقد أرسل الله لآباء هؤلاء رسولًا من قبل موسى هو يوسف بن يعقوب - عليهم السلام-، وأيده الله بالمعجزات البينات التي تدل على صدقه، والآيات الباهرات الموضحة لدين الله وشرائعه، فكذبوه، وكذبوا من جاء بعده من الرسل، وما زلتم في شك مما جاء به، ولم تؤمنوا به، حتى إذا مات فعلتم الأمر نفسه مع رسول من بعده، فكفرتم به في حياته، وكذلك كفرتم بمن جاء بعده من الرسل بعد مماته، مما يدل على توارث صفة التكذيب، واستمرار خلق العناد في مواجهة الرسل، والكفر بما جاءوا به من عند الله تعالى.

لقد ربط هذا الرجل المؤمن الداعية بين يوسف وموسى - عليهما السلام - برباط حكيم لطيف: من حيث النسب، والرسالة.

فهما من حيث النسب: إسرائيليان، ومن حيث الرسالة: متفقان، فهما مبعوثان من قبل الله تعالى، وهم يعلمون جيدًا أن يوسف عليه السلام نبي، وما دام موسى عليه السلام قد جاء بالبينات، وأخبركم أنه نبي، فالأصل أن تثبت له النبوة كذلك، فبما أن نبوة يوسف عليه السلام قد ثبتت، فقد ثبتت نبوة موسى عليه السلام.

فالحاصل أن كلام هذا المؤمن الداعية مقنع للعقول، ومؤثر في القلوب، وهو يخاطب العقل والقلب معًا؛ وقد لاحظ فرعون أن لكلامه على القوم أثرًا؛ ومن ثم تراجع فرعون عن قتله لموسى مضطرًا، وعدل عن هذا القرار أو عن هذه الفكرة»[١].

- الداعية المؤمن يدعوهم إلى اتباعه في صراحة:

لقد رأى هذا الداعية المؤمن أنه قد آن أوان الجهر بالدعوة - بعد أن كان يدعوهم سابقًا بتلميح إشاري-، فقد خشي هذا الداعية أن ينسى الناس دعوته بإشغال وإلهاء فرعون المتعمد لهم؛ فجهر بإيمانه، وطلب في صراحة ووضوح من قومه أن يتبعوه، فهو الآن في موقف التحدي السافر لفرعون الذي سبق أن قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ . وهذا الرجل المؤمن يوجه خطابه لقومه، كما قال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ .

ويُعَرِّف الرجل المؤمن قومه على خلاصة دينه الذي أكرمه الله به، فقال: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ . فهو

---

(١) "القصص القرآني"، (٢/٤٩٧، وما بعدها بتصرف) .، ويراجع: "التحرير والتنوير"، (٢٤/١٣٨)، و"التفسير المنير"، (٢٤/١١٧) .

الآن يحدثهم عن الآخرة وما أعده الله فيها من نعيم للمؤمنين، وعذاب للكافرين، وكان قبل ذلك قد حدثهم عن الألوهية؛ فقد ركز معهم على العقيدة.

- مقارنة الداعية المؤمن بين دعوته ودعوة فرعون:

ثم قارن هذا الداعية المؤمن – في تحد جديد سافر لفرعون – بين دعوته ودعوة فرعون.

دعوة فرعون الذي قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ . ودعوته لما قال لهم: ﴿يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ . قارن بين دعوته ودعوة فرعون بنفس اللهجة المحببة: ﴿يَاقَوْمِ﴾ .

وبين الرجل لقومه: أنهما دعوتان لا ثالث لهما؛ دعوة الهدى، ودعوة الضلال، دعوة الإيمان، ودعوة الكفر، دعوة مآلها إلى الجنة، ودعوة مآلها إلى النار، دعوة فيها النجاة في الدنيا والآخرة، ودعوة فيها البوار والخسران في الآخرة؛ ﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ* تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ .

ومن الفقه الدعوي عند هذا الرجل: أنه اعتبرهم مشاركين لفرعون حين قال في توجيه الدعوة لهم: ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ . لأنهم إذا وافقوا فرعون على دعوته؛ فقد اشتركوا معه فيها، وهذا يتضمن دعوتهم إلى رفض دعوة فرعون، وهو التوجيه نفسه في قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ . لأنهم إن وافقوه على قتله؛ فقد اشتركوا معه في جرمه.

وأخبرهم أنهم إن آمنوا بالله تعالى؛ فقد آمنوا بالعزيز القوي الجبار الذي يمنح من يؤمن به العزة والحماية من أعدائه، ويتوب عليهم ويغفر لهم؛ وفي هذا ترغيب لهم حتى يؤمنوا بالله وحده، وألا يخافوا بطش فرعون وسطوته؛ ومن ثم جرَّد فرعون أمامهم من امتلاكه للضر والنفع، وهي خطوة أخرى في تحديه لفرعون، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ

فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

وقد ختم هذا الداعية المؤمن الموفق بيانه الدعوي بإقامة الحجة على قومه، وهي خاتمة مناسبة، حيث قال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾.

ويعلن تفويض أمره إلى الله تعالى، واعتماده عليه، فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ . إذ هو الآن في موقف في غاية الخطورة؛ فلا حافظ له إلا الله - جل في علاه-؛ ومن ثم كانت النتيجة: أن حفظه الله ورعاه ووقاه شر ما كان يحذر، كما أخبر الله سبحانه: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ . وهذه هي اللقطة الأخيرة في قصة هذا الرجل الداعية المؤمن؛ الذي أدى ما عليه، وفوض في النهاية أمره إلى الله؛ فكفاه ووقاه.

ثامنًا: وصول فرعون إلى قمة الفجور والكفر:

من مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي: أن يصل فرعون الذي غرته قوته وسطوته إلى القمة في الفجور والكفر؛ حتى إذا سقط سقط سقوطًا مروعًا، وتكون الضربة ساعتها حاسمة قاضية مفاجئة لم يستعد لها، وتكون العبرة بإهلاك الله تعالى له بعد ذلك العلو أعظم العبر، وذلك حينما قال للملأ حوله - متطاولًا ومتهكمًا ومستهزئًا بموسى عليه السلام وبدعوته حينما دعاه إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] . ويتلقى الملأ الذين زينوا له كل سوء ما قاله بالإقرار والتسليم، ويعتمد فرعون في ذلك على طغيانه وجبروته وإرهابه الذي لا يدع عقلًا أن يُفكر ولا لسانًا أن يُعبّر، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤] . .

ولعل رد فرعون على موسى عليه السلام جاء لما هدد موسى عليه السلام بالسجن: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ

إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] . وهذا الكلام وجهه فرعون إلى موسى عليه السلام بعد ما أفحمه بالحجج القاطعة، والبراهين الناصعة الدالة على توحيد الله سبحانه وتعالى، وتفرده بالربوبية والألوهية، ولم يرضخ موسى عليه السلام لتهديده؛ بل أظهر آيتي العصا واليد واتضحت حجته، عندئذ خشي فرعون أن يسري التمرد على ألوهيته المزعومة إلى شعبه المقهور، فجاء بهذا الكلام الموجه إليهم رجاء أن يبطل بذلك حجج موسى عليه السلام في إثبات ألوهية الإله الواحد الأحد.

وفي هذا الخطاب للملأ، سلك فرعون ثلاثة مسالك لإقناع قومه بصحة موقفه في قضية الألوهية، وهي أولًا: إظهار نفسه بمظهر المنصف: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (نفى فيه علمه بوجود إله سواه، دون نفي وجوده، وعدم العلم بوجود الشيء البديل لا يدل على عدم وجوده، وإنما سلك هذا المسلك من أجل الخداع والتمويه؛ ليظهر نفسه في مظهر المنصف، ويتوصل بذلك إلى تقبلهم ما يقوله فيما بعد من أمر الإله اعتماداً على ما رأوا من إنصافه، فكأنه قال لا علم لي بوجود إله لكم غيري – كما زغم موسى – لكن الأمر محتمل وسأحقق لكم في ذلك(١)، وقد كان كاذبًا فيما ادعاه من عدم وجود إله غيره(٢). وإن فرعون كان عارفًا بوجود الرب في الباطن، لكنه جحد وأنكر كبرًا وعلوًا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنَ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء ١٠٢]،

---

(١) "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، (٢٨٨/١٠)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

(٢) "أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم"، سعيد محمد بابا سيلا، ص١٤١، دار ابن الجوزي، ت ط/ ٢٠٠٠م.

وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فكانوا عارفين بصدق الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، لكنهم جحدوا بها ظلمًا وعلوًا.

وكانت عاقبة الجحود وبالًا عليهم في الدنيا والآخرة، قال ابن تيمية -رحمه الله-: «وكان فرعون في الباطن عارفًا بوجود الصانع، وإنما استكبر كإبليس، وأنكر وجوده؛ ولهذا قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾، فلما أنكر الصانع، وكانت له آلهة يعبدها، لم يصفه الله بالشرك، وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة أخرى، والمنكر للصانع منهم مستكبر ولا يعبد الله قط»(١).

وإن قوم فرعون كانوا موافقين لفرعون في إنكاره الصانع العظيم، وادعاء هذا الكافر المجرم للربوبية والألوهية، وذلك في قول قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود ٩٧ - ٩٨](٢).

إن ما قاله فرعون في مقدمته الكاذبة بأنه لا دليل على وجود الله، مقدمة كاذبة وباطلة، فالأدلة على وجود الله مبثوثة في الأنفس والآفاق، وقد دل على وجوده سبحانه العقل والفطرة والحس، فحدوث الأشياء بعد عدمها دليل على أن موجِدًا أوجدها، فلا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، فثبت قطعًا أن هناك خالقًا أوجدها(٣).

كما أن المقدمة الثانية في إثبات إلهية نفسه، وأن إثبات ألوهيته على ملكيته ليس المقصود

---

(١) "مجموع الفتاوى"، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، (٦٣١/٧)، تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م.

(٢) "أسباب هلاك الأمم السالفة "، ص١٢٦.

(٣) "منهج القرآن في دحض شبهات الملحدين"، أفنان أحمد الغماس، ص١٢٢، مركز دلائل، الرياض، ١٤٣٨ه- ٢٠١٧م.

بها كونه خالقًا للسماوات والأرض وما بينها؛ لأن العلم بامتناع ذلك من بداهة العقول، فلم يدّع أحد ذلك، بل إن مقصده أن السلطة والقيادة على الناس لا تكون إلا له، وأن طاعته والانقياد لأوامره واجبة، فهو ملكهم وسيدهم، ومن هنا ادعاء ربوبيته عليهم، وأن في كلامه ما يؤكد عدم ثقته في ألوهيته عليهم، وأن من المحتمل وجود إله غيره يستحق العبودية له.

ويتبين ذلك في تصريحه في اللحظة نفسها بأنه شكاك بكذب موسى عليه السلام غير متيقن من دعوى وجود رب العالمين "إله غيره"، وذلك بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. فإذا كان ظنه أن دعوة موسى عليه السلام كانت في إثبات إله غيره ولم يتيقن من كذبه، ويعلم علم اليقين بذلك، فهذا دليل إقرار غير مباشر أن ثمة إلهًا غيره في الوجود، فما دام ظن أن موسى عليه السلام كاذب، فقد ظن أن في الوجود إلهًا غيره، بل إن الآيات على لسان موسى عليه السلام أخبرت أنه كان عالمًا بصحة دعوة موسى عليه السلام وليس ظنيًا، وذلك بقول موسى عليه السلام له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[(١)].

وقد شابه قوله قول كثير من الملاحدة المعاصرين الذين ينفون وجود الله، بحجة عدم وجود الدليل على ذلك، فما لا دليل عليه: وجب نفيه! ، ويزعمون أنهم بحثوا وسبروا وتحروا مواطن إمكان وجوده، ومع ذلك لم يجدوه، فوجب انتفاء وجوده، وعلقوا وجوده على جانب حسي تجريبي، فإذا تحقق إثبات وجود الله عن طريق العلوم التجريبية المحسوسة، وجب إثباته فحصروا الدليل عليه، وأثبتوا نفيه وعدم وجوده، فكان فرعون أحسن حالًا منهم - مع تجبره وتكبره - حيث شك في وجوده وقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ

---

(١) "مفاتيح الغيب"، (٥٩٩/٢٤) .

الْكَاذِبِينَ﴾. ولم ينف وجود الخالق كما فعل ملاحدة عصرنا[١].

فالمنكرون للألوهية «يطلبون الدليل على ثبوت الشيء، فإذا لم يجدوه نفوه، ومعلوم أن عدم العلم ليس علمًا بالعدم، وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود»[٢]. فهؤلاء: «إذا لم يعلموا ذلك؛ لم يكن هذا علمًا منهم بعدم ذلك، ولا بعدم علم غيرهم به، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩] »[٣].

إن كثيرًا من الملحدين قد ضلوا بسبب الجحود والنكران، «وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾. وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل، فإذا أثبتوا شيئا وصدقوا به كان حقًا»[٤].

ثانيًا: إظهار نفسه بمظهر المحقق المدقق، والباحث عن الحقيقة بالطرق العملية، إذ يظهر ذلك في القرآن: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾. فها هو يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة.

فبعد الخطاب الموضوعي المؤثر الذي ألقاه مؤمن آل فرعون على قومه، ولاحظ

---

(١) "منهج القرآن في دحض شبهات الملحدين"، ص١٢٣.

(٢) " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، (٤٦٩/٦)، تحقيق: د. علي حسن ناصر، د. عبد العزيز إبراهيم العسكر، د. حمدان محمد، دار العاصمة – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.

(٣) " الرد على المنطقيين، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، ص١٠٠، دار المعرفة – بيروت.

(٤) "مجموع الفتاوى"، (٣٣٦/١٧) .

فرعون أن هذا الخطاب قد أثر في القوم، فخاف فرعون أن يستميل مؤمن آل فرعون قومَه إليه، فأظهر عدوله عن قتل موسى عليه السلام، ومن ثم قام بحركة مسرحية مفضوحة خبيثة؛ فيصدر فرعون أمره الفوري إلى وزيره هامان ليبني له بناء عاليًا مرتفعًا، يصعد من خلاله إلى السماء ليبحث حقيقة ما ذكره موسى عليه السلام من وجود إله له في السماء، ولعله كان يرجو أن يكون ما يقوله مقبولًا بعد هذا التحقيق... وفي قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾. يتبين أن فرعون الذي لم يعلم لشعبه إلهًا غيره، يجهل أن من صفات الإله الاستغناء عن غيره، وأن المحتاج إلى مساعدة لا يكون إلهًا، وكأن هذه (الفاء) التي في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾. فاضحة وكاشفة لوهمه، وأنه ما أتم جملة: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾. حتى دل على كذبه بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾. وقد جرى على لسانه ما يلفت أنه ينفي بلسانه ألوهيته، وذلك في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي﴾. وقوله: ﴿فَاجْعَلْ لِي﴾. فأنا في حاجة إلى أن توقد لي، وفي حاجة إلى أن تجعل لي صرحًا، وهذا إعلان صريح عن الحاجة التي يفترض أن يكون الإله غنيـًا عنها.

ما هدف فرعون من بناء الصرح؟

هدفه الظاهري هو البحث عن إله موسى عليه السلام في السماء، والوقوف على الأدلة السماوية التي تثبت وجوده ووحدانيته. وذلك ليكسب القوم إلى جانبه! لكن هدفه الحقيقي من ذلك خبيث، فهو يريد إلهاء وإشغال الناس عن القضية الأساسية التي يطرحها الرجل المؤمن، ويريد أن يصرفهم عن منطقه الدعوي، وذلك بأن يُتابعوا بناء الصرح، والمراحل البطيئة التي سيمر بها، وعندها تفقد دعوة الرجل المؤمن حيويتها وتوهجها وسخونتها، وتتحول إلى قضية هامشية ثانوية باردة، ثم يتناسونها بعد ذلك . ومن كيد فرعون ومكره الخبيث أنه سيعود من جولته العلمية البحثية المزعومة بأن موسى كاذب، وأنه ذهب إلى السماء ليبحث عن إله موسى، ولكنه لم يجده، ولو وجده لآمن به، إن هذه النتيجة عنده قرار مسبق، لكنه أراد أن

يُلبسها ثوب العلم والبحث، أي أنه يوظف البحث والعلم توظيفًا شيطانيًا خبيثًا، لمحاربة موسى عليه السلام ودعوته، وللشهادة له ولفرعنته![1].

بين مسرحية فرعون وتزييف وافتراء غاغارين الروسي الملحد:

وهذه المسرحية الفرعونية تذكرنا «بما فعله رائد الفضاء الروسي السابق غاغارين حيث زيف وحرف وكذب وافترى على البحث والعلم.

فهو ماركسي ملحد ينكر وجود الله، ولكنه لما صعد إلى السماء في سفينة الفضاء، أعجب بجمال الكون وتناسقه، فاستيقظت فطرته لحظة، ونطق عبارة إيمانية لا إرادية، وهو مبهور بإبداع الكون، قال: لا بد أن يكون لهذا الكون إله!

وهذه العبارة إلغاء ونسف للماركسية من الجذور، ولهذا ما أن هبط غاغارين إلى الأرض، حتى اتصل به سادته مهددين متوعدين، وطلبوا منه تعديل تصريحه السابق؛ فرضخ لهم، وأخبر الصحفيين قائلا: لقد صعدت إلى السماء، وذهبت أبحث عن الله، لكني لم أجده!

وكان فرعون يريد أن يخرج بهذه النتيجة، يريد أن يقول للناس: لقد بنيت الصرح، وصعدت إلى السماء، وبحثت فيها عن أدلة تشهد لموسى عليه السلام، وتُثبت وجود الله، وتمنيت أن أجدها، لكني ما وجدت منها شيئًا، وما وجدت الله في السماء، ولذلك ليس لكم إله غيري، وموسى عليه السلام كاذب في دعوته!

إذن لم يكن فرعون جاداً في البحث، ولا في بناء الصرح، ولكنه هازل عابث ساخر، وكم سينفق وزيره هامان من أموال على بناء الصرح، وكم سيوظف له من طاقات وقدرات الأمة،

---

(١)"القصص القرآني"، (٢/٤٩٨، وما بعدها).

وهذا هو هدف فرعون المسرحي منه!»[1].

ثالثًا: اتهامه لموسى عليه السلام بالكذب، وقد عبر عن هذا الاتهام بالظن، كما في قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. أي فيما ذهب وزعم أن ثم إلهًا غيري، وغرض فرعون من هذا الاتهام هو أنه إعلامه أنه عازم على الصعود إلى السماء؛ ليس لأنه متيقن من بوجود إله موسى عليه السلام هناك، بل ليؤكد من عدم صحة وجود إله سواه، ومن ثم يثبت أنه على الحق وموسى عليه السلام على الباطل.

ولم يتراجع فرعون عن ادعائه الألوهية، رغم الحجج الساطعة والبينات الناصعة التي أتى بها موسى عليه السلام، حتى إذا وصل إلى مرحلة عين اليقين وبعدها مرحلة حق اليقين بمعايشة العذاب وتحقق الهلاك؛ حاول أن يستدرك ما فاته ليبعد عن نفسه البلية الواقعة، وفي ذلك يقول الله -جل وعلا-: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] . ولكن هيهات هيهات، فقد فات الأوان، وجاءه الجواب المفحم في قوله تعالي: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩١] . نعم يا فرعون، فلقد كان لديك متسع من الوقت لتشهد شهادة التوحيد، وتسلم لرب العالمين؛ أما الآن بعد معاينة العذاب فكلا ثم كلا[2].

تاسعًا: تمحض الحق والباطل ووقوفهما وجهًا لوجه في مفاصلة كاملة:

لقد قام موسى بمهمة البلاغ على أتم وجه، وأعانه على هذا الواجب أخوه هارون -

---

(١) "القصص القرآني"، (٢/٥٠٠، وما بعدها) .

(٢) "أسباب هلاك الأمم السالفة "، ص١٤٢، وما بعدها.

عليهما السلام-، وقلبا لفرعون كل الأمور، متحملين في سبيل الدعوة كل عنت وعتو وجبروت وإرهاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: ٥٦] . أي: «أرينا فرعون آياتنا التي جرت على يد موسى، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ [النمل: ١٢] . وهي انقلاب العصا حية، وتبدل لون اليد بيضاء، وسنو القحط، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، وانفلاق البحر؛ وقد استمر تكذيبه بعد جميعها، حتى لما رأى انفلاق البحر: اقتحمه طمعًا للظفر ببني إسرائيل.

وتأكيد الآيات بأداة التوكيد كلها لزيادة التعجيب من عناده. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ [القمر: ٤١، ٤٢]»(١).

واستعمل فرعون في مواجهة الحق الذي جاء به موسى عليه السلام من عند ربه وسائل عديدة، منها:

* تربية الأمة على الإلحاد بنشر ثقافة الفوضى والرذيلة، وإطلاق العنان لأعوانه، بالقيام بذلك، وقد وصل بهم في ذلك إلى درك أخلاقي سحيق، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤] . لقد استخف بهم وبأفكارهم وبعقولهم؛ وذلك بعزلهم عن كل سبل العلم المعرفة، وحجبه عنهم الحقائق إلى أن ينسوها؛ وإلقاء ما يشاء من المؤثرات في روعهم حتى تنطبع نفوسهم بها. ومن هنا يسهل استخفافهم؛ وما كان لفرعون أن يفعل ذلك إلا لأنهم فاسقون، قادهم فسقهم إلى تفاهة عقولهم، وسخافة تصوراتهم، وحقارة شخصياتهم، ودناءة اهتماماتهم؛ ومن ثم داروا في فلك فرعون، وأقروه على كل ما قال وكل ما وكل ما فعل.

---

(١) "التحرير والتنوير"، (١٤٢/١٦) .

وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، ومعنى «الإضلال: الإيقاع في الضلال، وهو خطأ الطريق الموصل. ويستعمل بكثرة في معنى الجهالة وعمل ما فيه ضر وهو المراد هنا. والمعنى: أن فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بث فيهم من قلب الحقائق والجهل المركب، فلم يصادفوا السداد في أعمالهم؛ حتى كانت خاتمتها وقوعهم غرقى في البحر بعناده في تكذيب دعوة موسى -عليه السلام-.

- وعطف وما هدى على أضل: إما من عطف الأعم على الأخص لأن عدم الهدى يصدق بترك الإرشاد من دون إضلال، وإما أن يكون تأكيدًا لفظيًا بالمرادف مؤكدا لنفي الهدى عن فرعون لقومه؛ فيكون قوله: ﴿وَمَا هَدَى﴾: تأكيدًا لـ ﴿أَضَلَّ﴾: بالمرادف كقوله تعالى: ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ [النحل: ٢١] »[١].

وقال تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] . وكأن فرعون يسوق قطيعًا من الغنم يسير أمامه من دون تفكير، والراعي حين يورد أغنامه يوردها لأجل الانتفاع بِالسَّقْيِ، وفرعون لما أورد قومه أوردهم النار، فالنص فيه استعارة تهكمية؛ والتهكم هنا من فرعون، ومن الذين اتبعوه على حد سواء.

- استعمال الترهيب والوعيد الشديدين، والتضييق، والسجن، والتعذيب، والقتل؛ استعمل كل هذا:

- مع أتباع موسى من قومه كما حكى الله عنهم: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

- مع من استجابوا لموسى من المصريين أنفسهم الذين انفتحت قلوبهم للإيمان فور

(١) "السابق"، (١٦/٢٧٢) .

معرفة الحق، كما حصل للسحرة، فكان وعيده لهم كما ذكر القرآن عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤].

- مع موسى عليه السلام نفسه، فقد هدده فرعون بالسجن قائلاً كما ذكر القرآن عنه: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

ووصل الأمر بالتآمر عليه لقتله وبقوله علنـًا كما ذكر القرآن عنه -كما سبق بيانه- .

وكان فرعون وأتباعه يريدون رجم موسى حتى الموت، لأن من عاداتهم السيئة أن يعاقبوا من يخالف دينهم بالرجم بالحجارة إلى أن يقتلوه)[١]؛ لذا استعاذ موسى من ذلك فقال: ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

لقد نشر فرعون بذلك الفزع والرعب والخوف في أرجاء البلاد، حتى إن كثيرًا ممن سلمت فطرتهم وأحبوا موسى ودعوته، خافوا من الاقتراب منه ومتابعته على إيمانه؛ فقد أدى بطش فرعون إلى تردد الكثير من رجال بني إسرائيل في الإيمان بموسى، بل إنهم تراجعوا عنه خوفًا من فرعون وملئه، فهم على معرفة تامة بهم وبعلوهم وبطشهم واستكبارهم وظلمهم وبغيهم وفسادهم وإفسادهم وإسرافهم في القتل والدماء، وما آمن بموسى إلا من قذف الله في قلوبهم الإيمان والهمة والإرادة والحماسة من الشباب والفتيان من بني إسرائيل، فأقبلوا على الإيمان بموسى ولم يأبهوا بفرعون ولا بما سيفعل، فقدموا التضحية بالثبات.

وهذه طبيعة الكبار، وتلك طبيعة الشباب، فإن الدعوات الصادقة تقوم في بدايتها على أكتاف الشباب، والكبار يأتونها بعد استقرارها وانتصارها على أعدائها. قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ

---

(١) "السابق"، (٢٩٧/٢٥، وما بعدها) .

لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

ومن ثم توجه موسى إلى هؤلاء الشباب وطلب منهم الاستعانة بالله تعالى والصبر على مشقة الطريق، فهما زاد كل داعية صادق في دعوته وفي سيره إلى الله تعالى، ولهما أثر كبير في مسيرة الدعوة وتحقيق المراد، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

❋ أصحاب النفوذ من طلاب المناصب والشهرة، وهم الملأ الذين زينوا لفرعون كل سوء، وهيجوه على موسى والمؤمنين به؛ حرصًا على كراسيهم وشهواتهم، فلما رأوا انتشار دعوة موسى، واشتداد أمره، هيجوا فرعون ضد موسى وضد أتباعه الذين آمنوا به، -علمًا أن فرعون أصلًا لا يحتاج إلى من يهيجه على موسى وأتباعه - وطلبوا من فرعون ألا يترك الحرية لموسى ليمارس دعوته، وطلبوا منه ألا يترك الحرية لبني إسرائيل أن يؤمنوا، فقالوا لفرعون كما ذكر القرآن عنهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] .

وتقتيل وتذبيح أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم هنا غير تذبيح وتقتيل الأبناء واستحياء النساء الذي وقع قبل ولادة موسى؛ ومعنى ذلك أن هذا الأمر قد وقع مرتين:

الأولى: قبل ولادة موسى، والذي قام به هو (رَعَمْسِيس الثاني) المعروف عند اليونان باسم (سِيزُوسْتِرِيسَ) .

والثانية: بعدما آمن الناس بموسى، وذلك لصدهم عن الإيمان ومتابعة موسى، والذي قام به في هذه المرة هو: (مِنْفِتَاحُ الثَّانِي ابْن رَعْمَسِيسَ الثَّانِي) من ملوك العائلة التاسعة عشرة من الأسر الفرعونية في ترتيب فراعنة مصر عند المؤرخين، وهو الذي خلف أباه في الملك

بعد وفاته أواسط القرن الخامس عشر قبل المسيح، فلا جرم كان موسى مربّى والده، فلذلك قال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] .، ولعله رُبِّيَ مع فرعون هذا كالأخ[(١)].

وهم (الملأ) الذين أشاروا على فرعون بعقد مؤتمر جماهيرى عام بين موسى وأدواته من السحرة قبل إيمانهم، يحضره الجميع بغرض فضح موسى عليه السلام، وإسقاطه جماهيريـًا، وهزيمته في نهاية المطاف، لكن الله تعالى خيب ظنهم، فرد كيدهم في نحورهم وكفى موسى ومن معه شرورهم، وانقلب السحر على الساحر، فأمن السحرة أنفسهم من فورهم، وفضح الله باطل فرعون ومن معه، وهزموا هم شر هزيمة أهاجت فرعون وزلزلت عرشه-كما سبق بيانه - وكان فرعون يصدر عن رأيهم، فلم يستأثر برد دعوة موسى بل قال لمن حوله: ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٥] . وَقَالَ: ﴿فَماذا تَأْمُرُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٥] .

* وكان من وسائله ضد الحق وأهله، جنوده الكثر الأشداء، فقد كانوا القوة الضارية في الأرض آنذاك كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩] . وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ* فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٧، ١٨] .

* رجال الأعمال من أصحاب الأموال الذين عملوا لمصالحهم وأموالهم، ضاربين بمصالح الأمة وحقوقها عرض الحائط، وقد مثل هؤلاء قارون الذي كرس هو الآخر للفساد بما صنع حرصًا على مصلحته وماله، وهذه شنشنة قديمة حديثة تتكرر في كل زمان ومكان، وقصته في القرآن الكريم في سورة القصص معلومة.

---

(١) يراجع: "التحرير والتنوير"، (١/٤٩٦)، (١١/٢٨٠)، (١٩/٢٨٠)، (٢٠/٧٢)، (٢٣/٢٢١) ..

* استعمال الشنشنة القديمة الحديثة، والتي تظهر في صور عديدة منها:

– قلب الحقائق والتشويش على الدعوة ورجالها –الذين يمثلهم موسى وهارون – عليهما السلام – وأتباعهما–، والتلبيس على الأمة بأن فرعون الظالم المتجبر هو المصلح الحريص على الأمة وعلى مصالحها، وأن الدعاة إلى الله تعالى هم المفسدون في الأرض، كل ذلك لصرف الجماهير عن موسى وأخيه – عليهما السلام – وأتباعهما، وتفريقهم من حولهم، كما سجل القرآن الكريم ذلك في مواضع عديدة

– إلصاق كل مصيبة تنزل بالناس ويعجز الباطل عن حلها بموسى ومن معه من الدعاة والمؤمنين، وتوعدهم.

– تكذيبهم بالآيات التي أوتيها موسى والإنذارات على لسانه ولسان أخيه وهارون – عليهما السلام – فلم يؤمنوا، فلا سماع للحق، ولا فهم ولا تدبر، حتى ولو كانت آية حسية من الله تعالى، بل إنهم كانوا يضحكون من آيات الله تعالى المتتابعة التي كانت تأتيهم من باب الاستخفاف والتكذيب بهذه الآيات، كما صور ذلك القرآن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦: ٤٨].

– فإذا ما عضتهم مصيبة بشدتها وتنوعها، تمسكنوا، واقتربوا من موسى ومن معه، ووعدوهم بتخفيف الضغوط عنهم وإطلاق الحريات لهم، عامدين إلى الدين وممثليه لكشف ما نزل بهم، فإذا ما انكشف عنهم البلاء عادوا إلى سابق عهدهم من الفُجر وأشد، وقد سجل القرآن ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ

لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠: ١٣٥] .

* وسائل الحق قليلة متواضعة لكنها قوية عظيمة:

كانت الوسائل التي استعملها موسى عليه السلام في مقابل وسائل فرعون قليلة متواضعة، - لكنها كانت بالله تعالى، وبجنوده سبحانه، وبما بذل موسى وأخوه معه من جهود - كانت قوية عظيمة، وفى هذا عبر عظيمة للدعاة تمثلت فيما يلى:

أ) الاستمرار في التربية لما لها من أثر كبير في الثبات والنصر في نهاية المطاف، وقد أثمرت هذه الوسيلة ثمرتها بظهور عناصر كان لها في الدعوة وتاريخها دور عظيم، ومن هؤلاء:

١/ مؤمن آل فرعون وموقفه الرائع وبيانه الدعوي.

٢/ يوشع بن نون فتي موسى-عليه السلام-، الذي قاد المسيرة من بعده.

٣/ زوجة فرعون ذاتها سيدة البلاد الأولى في إيمانها ووقوفها بجانب الحق غير عابئة بفرعون وجبروته.

إن الجراء الذي نالته هذه المؤمنة هو: التكريم العظيم لها في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١١، ١٢] .

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «كَمَلَ مِنَ

الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(١).

٤/ الرجلان اللذان صمدا مع موسى وأخيه -عليهما السلام-، بينما تقاعس القوم حين أمرهم موسى -عليه السلام- بدخول الأرض المقدسة، كما ذكرت سورة المائدة: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] ..

. ب) الاتصال الوثيق بالله تعالى عن طريق الذكر والصلاة والتضرع والدعاء وغير ذلك من ألوان العبادة الموصلة بالله تعالى، فقد قال الله تعالى لموسى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وقال عن موسى -عليه السلام- والمؤمنين معه: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٤: ٨٧].

* القدرة على إدارة الحوار لإحقاق الحق الذي عليه الداعية:

لقد تمتع موسى عليه السلام بالقدرة علي الحوار، وهو أسلوب من أساليب الدعوة الإسلامية له

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، ح رقم (٣٢٣٠)، ومسلم في "صحيحه"، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، ح رقم (٢٤٣١).

أهميته وضرورته، فرغم أنه اعتذر لربه بأن يرسل معه أخاه هارون -عليه السلام-؛ لأنه أفصح منه لسانًا؛ إلا أن الله تعالى أعانه وأنطقه بالحق الصراح، وكانت حواراته مع فرعون وقومه من بنى إسرائيل آية بينة على ذلك كما هو في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وما في سورة الشعراء مثال واضح على ذلك، قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ* قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ* فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ* قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ* قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٦: ٣٣] .

* عدم مبالاة موسى الضعيف المستمسك بالحق بفرعون الطاغية الجبار:

فهذا موسى -عليه السلام- في موقف من مواقف العزة والرجولة والقوة، سجل له القرآن الكريم هذه اللقطة؛ حيث قال له فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] . فقال موسى -عليه السلام- في غير مبالاة به ولا اكتراث لما هو فيه من أبهة الملك وعز السلطان: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] . أي: هالكًا

فلقد بين له موسى -عليه السلام- كذبه ومغالطته، حيث كشف له حقيقة نفسه من الداخل، فهو يعلم يقينًا من داخله أنه ليس ثمة إله غير الله تعالى، فهو الإله الحق الذي بيده كل شيء؛

وهذا التحليل النفسي من موسى –عليه السلام– لفرعون تحليل دقيق، فلقد قال الله تعالى عنه وعن ملئه حين جاءهم موسى بالآيات البينات: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: بين لفرعون خسارته وهلاكه(١)، فقال له: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ . أي: ملعون هالك مغلوب.

وهذا الرد القوي من موسى يتناسب مع الموقف، ولا يتعارض هذا مع وصية الله تعالى لموسى وهارون – عليهما السلام – أن يلينا له في القول، وأن يتلطفا معه، كما قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] . لأن موسى وهارون – عليهما السلام – بالفعل فعلا ذلك، لكن الموقف هنا يحتاج إلى رد قاس غليظ، فناسب أن يرد موسى عليه هذا الرد الواضح الصريح، وهذا من حكمة موسى في الدعوة إلى الله تعالى.

عاشرًا: تدخل يد القدرة سافرة لوضع حد للبغي والفساد: .

من مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي التي تستبط من هذه المرحلة الحرجة من مراحل الدعوة: أنه حينما يفعل الدعاة المصلحون ما في وسعهم، ولا يستطيعون الوقوف ضد البغي والفساد، ويعجزون عن صد الباطل وتمدده؛ تتدخل يد القدرة سافرة لوضع حد للبغي والفساد، واجتثاث الباطل من جذوره، وهذا ما حدث حينما استعمل موسى وهارون – عليهما السلام – ومن معهما من الدعاة والمصلحين كل الوسائل الممكنة للحد من بغي فرعون وفساده، فهنا تدخلت يد القدرة فوضعت حدًا لهذا الباطل.

---

(١) يراجع: "المستفاد من تاريخ الدعوة"، (١/١٤١، وما بعدها)، و"القصص القرآني"، (٣/٥، وما بعدها) . .

موسى -عليه السلام- يدعو على فرعون وملئه:

علم موسى - عليه السلام - من الله تعالى أن فرعون وملئه لن يؤمنوا، وأنه قد خُتم على قلوبهم؛ بسبب اختيارهم الكفر، وإصرارهم على الباطل والبغي والفساد، فلجأ موسى - عليه السلام - في مواجهة فرعون وملئه إلى القوي العزيز المتين - جل وعلا - بالسلاح الفعال والسهم الذي لا يخطئ - وهو الدعاء - فدعا ربه وسأله أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم، وقد سجل القرآن ذلك عنه في قوله تعالى على لسانه: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۞ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

لقد أشار موسى -عليه السلام- في دعائه على فرعون وملئه إلى أن من الوسائل القذرة التي استعملها فرعون لصد الناس عن سبيل الله تعالى: الزينة والأموال؛ فكان فرعون يأمر ملئه أن يعطوا الأموال الكثيرة لمن يوافقوهم؛ لكسب ولائهم، ويحرموا من آمن بموسى من ذلك؛ ومن ثم كان يتأثر ضعاف الإيمان، فيقبلون عليهم راغبين في هذه الأموال، ويتخلون عما يزعج فرعون وملئه خوفًا من الحرمان من عطاياهم.

لقد انفتحت أبواب السماء لتضرع موسى الخالص بالدعاء وبتأمين أخيه هارون -عليهما السلام-؛ فطمأنهما الله تعالى سريعًا بأن عذابه حالّ بفرعون ومن معه لا محالة، وما عليه إلا أن يواصل الطريق إلى نهايته آخذًا بالأسباب.

لقد تخطى فرعون وملئه كل الحدود في حق الله تعالى وفي حق خلقه، ووصل به الأمر إلى عقد مؤتمر انتهى بموافقة المجتمعين فيه على طلب فرعون: التخلص من موسى ودعوته.

وهنا تدخلت يد القدرة الإلهية سافرة للتخلص من فرعون وجنوده، فقد أخبر الله موسى

ﷺ بما دُبر له، وأمره الله تعالى بإعداد العدة، ففعل موسى - ﷺ-، وكان في ذلك نهاية فرعون الذي طغى وأفسد وبغى، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢: ٦٨] .

وهنا لابد من المقارنة بين آيتين:

الأولى: آية الله تعالى لعبده موسى الذي صير له اليم في طفولته مهادًا وحفظًا، بينما صيره لفرعون قبرًا وعذابًا، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] . وقال تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] .

الثانية: إبقاء الله تعالى جسد فرعون كل هذه القرون وإلى ما شاء الله تعالى لمن أراد أن يعتبر، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠: ٩٢] .

لكن الأمر لم ينته بغرقهم، ولكنهم استقبلوا حياة أخرى تتناسب مع حجم الجرم الذي فعلوه في الدنيا، إنها حياة الجحيم في القبر، قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا

وَيَوْم تَقُوم السَّاعَة أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْن أَشَدّ الْعَذَاب﴾ [غافر: ٤٦]. ويوم القيامة يتقدم فرعون حاشيته وأتباعه[1]، كما قال الله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٨، ٩٩].

(١) يراجع: "المستفاد من تاريخ الدعوة"، (١/١٤٦، وما بعدها).

خاتمة البحث

بعد هذا التطواف الرحيب في مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في قصة موسى ﷺ مع فرعون، حان أوان قَيْد النتائج، ورَقْمِ الخلاصة، وتسجيل المقترحات:

أولًا: أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة، وهي على النحو التالي:

١) موسى ﷺ أكثر الأنبياء في القرآن الكريم ذكرًا، فقد بسطت قصته في القرآن الكريم بسطًا شبه كامل من قبل ولادته إلى نهاية حياته تقريبًا، فشغلت قصته حيّزًا كبيرًا في كتاب الله تعالى؛ وذلك لما احتوته من دروس دعوية عظيمة، وكيف هيّأ الله تعالى الأسباب للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي لكي يتجاوز المعضلات والمعوقات، ومن ثم: كان القرآن الكريم يذكِّر النبي ﷺ بقصته في مرحلة الدعوة المكية، وكذلك يذكِّره بها في مرحلة الدعوة بالمدينة.

٢) ثمة تشابه كبير بين قصة موسى ﷺ وسيرة نبينا ﷺ: .

٣) قصة موسى ﷺ هي بمثابة مِسْبَار ونبراس للنبي ﷺ ومن اتبعه من الدعاة إلى الله تعالى؛ لمعرفة علل الأشياء ومعلولاتها، ومن ثم يسيرون في شؤونهم الدعوية على طرائقها.

٤) موسى ﷺ قد واجه أعتى طغاة العصور: (فرعون، وهامان، وقارون)، وجنودهم، وسحرتهم الذين يشرعنون طغيانهم، ووزراؤهم الذين يتزلفون إليهم بكل الوسائل، والحاشرون الذين يضللون الناس صباح مساء. وهي ظاهرة تتكرر في كل العصور.

٥) بان من الدراسة أن فرعون الذي ولد موسى ﷺ في عهده هو: (رَعْمَسِيسُ) الثاني، وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة في اصطلاح المؤرخين للفراعنة، وكان فاتحًا كبيرًا شديد السطوة؛ وقد عم الفساد وانتشر في عهده وبسببه انتشارًا رهيبًا في بر هذه الأرض وبحرها، ووصلت الأوضاع العامة في فترة ما قبل ميلاد موسى ﷺ وما بعده إلى

أقصى درجات الفساد والانحلال على كل المستويات - العقدي، والخلقي، والاجتماعي، والاقتصادي...إلخ.

٦) وكان فرعون هذا يستضعف طائفة بني إسرائيل فيجعلها مُحَقَّرَةً مهضومة الجانب يذبح أبناءهم الذكور، ويستحيي نسائهم.

٧) وبان أن قصده من تذبيح الذكور هو: أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم؛ حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

٨) كما بان أن قصده من استحياء النساء؛ هو: أن يصرن بغايا؛ إذ ليس لهن أزواج.

٩) كما ظهر من الدراسة: أنه لما تعلقت إرادة الله تعالى بإنقاذ هذه الطائفة المستضعفة المضطهدة؛ هيأ الله لذلك الأسباب، ويسر الوسائل؛ ومن أجلِّ هذه الأسباب خَلْقُه سبحانه وتعالى المنقذ لهم.

١٠) وظهر أن رعايته سبحانه إذا أحاطت بعبد من عباده صانته من كل أعدائه، مهما بلغ مكر هؤلاء الأعداء وبطشهم. فرعاية الله لموسى عليه السلام جعلته يعيش بين قوى الشر والظلم والطغيان آمنًا مطمئنًا.

١١) وظهر من الدراسة: أن وسائل الباطل كثيرة ضخمة، لكن ما أضعفها وأهونها أمام قدرة الله تعالى، ووسائل الحق قليلة متواضعة، لكنها قوية عظيمة.

١٢) وأوضحت الدراسة: أن من سنن الله تعالى: أنه لابد من تمحض الحق والباطل، ووقوفهما وجهًا لوجه في مفاصلة كاملة، كما حدث في قصة موسى مع فرعون.

١٣) كما أوضحت الدراسة: أنه لابد من الاهتمام بالشباب وتربيتهم تربية سليمة، وتحصينهم من الغزو الموجه إليهم، فهم عماد الدعوة، وعليهم تقوم، فما آمن بموسى إلا من قذف الله في قلوبهم الإيمان والهمة والإرادة والحماسة من الشباب والفتيان من بني إسرائيل، فأقبلوا على الإيمان بموسى، ولم يأبهوا بفرعون ولا بما سيفعل، فقدموا التضحية بالثبات.

١٤) وكذلك أوضحت الدراسة أن الاستمرار في التربية له أثر كبير في الثبات والنصر في نهاية المطاف.

١٥) وأظهرت الدراسة: أن الباطل قد ينجح لفترة تطول أو تقصر في سحر أعين الناس ببريقه، أو استرهاب قلوبهم بقوته وسطوته وجبروته، لدرجة أنه ليخيل إلى كثير من الغافلين أن لا راد له، فإذا واجهه الحق المتسم بهدوئه وثباته واستقراره وقوته المستمدة من قوة الله تعالى، زهق وزال، وإذا بأتباع الباطل في ذهول وذل وخزي، وهم يرون عروشهم تتساقط، وآمالهم تتداعى، وصروحهم تتهاوى، أمام الحق وأتباعه.

١٦) وبان من الدراسة أن: منطق أهل الباطل: أنهم ينظرون إلى الدعوة إلى الله تعالى على أنها فساد وإفساد في الأرض؛ لأنها ستأتي على باطلهم من القواعد، وستحرر الناس من طغيانهم وسطوتهم، وستنشر الوعي الذي يخشونه.

١٧) وكذلك بان من الدراسة أن الاتصال الوثيق بالله تعالى عن طريق الذكر والصلاة والتضرع والدعاء وغير ذلك من ألوان العبادة الموصلة بالله تعالى، له أثره الفعال في حفظ الدعاة والمستضعفين ونجاح الدعوة.

١٨) وبان أيضًا من الدراسة: أن على الدعاة إلى الله أن يعتمدوا في دعوتهم أسلوب الملاطفة واللين، وأن يتجنبوا أسلوب الغلظة الشدة؛ فإن الله تعالى أمر موسى وهارون – عليهما السلام – وهما من صفوة الله تعالى في خلقه – أن يخاطبا فرعون – وهو من هو في ظلمه وعتوه وطغيانه – بالملاطفة واللين.

١٩) وأظهرت الدراسة أن الداعية المستمسك بالحق لا يبالي بمن خالفه ولو كان عظيمًا.

٢٠) كما أظهرت الدراسة أن القدرة على إدارة الحوار له أثره الكبير في إحقاق الحق الذي عليه الداعية.

٢١) وأوضحت الدراسة أنه حينما يفعل الدعاة المصلحون ما في وسعهم، ولا يستطيعون

الوقوف ضد البغي والفساد، ويعجزون عن صد الباطل وتمدده؛ تتدخل يد القدرة سافرة لوضع حد للبغي والفساد، واجتثاث الباطل من جذوره.

٢٢) وأخيرًا أوضحت الدراسة أن فرعون الغرق هو: (مِنْفِتَاحُ الثَّانِي ابْن رَعْمَسِيسَ الثَّانِي) من ملوك العائلة التاسعة عشرة من الأسر الفرعونية في ترتيب فراعنة مصر عند المؤرخين، وهو الذي خلف أباه في الملك بعد وفاته أواسط القرن الخامس عشر قبل المسيح، فلا جرم كان موسى مربّى والده، ولعله رُبِّيَ مع فرعون هذا كالأخ

ثانيًا: أهم المقترحات:

١) أقترح على الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف عقد دورات وندوات ومؤتمرات علمية ملزمة للدعاة والأئمة والوعاظ في التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي، وصناعة الأمل بشرط العمل.

٢) استكتاب كبار العلماء والباحثين في مجال الدعوة الإسلامية وغيرها؛ لتحرير بحوث معمقة تتناول دراسة الواقع الدعوي، واستشراف المستقبل، أو ما يسمى: بفقه الواقع، وفقه التوقع أو فقه المآلات.

٣) توجيه مزيد من البحوث في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية حول موضوع التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في قصص الأنبياء وأتباعهم في القرآن الكريم؛ لزيادة ثروة الدعاة والدعوة العلمية والتطبيقية، وزيادة الأمل والوعي داخل الميدان الدعوي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

فهرس المراجع

- القرآن الكريم، سبحان من أنزله.
- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم، تقديم: فضيلة الشيخ الدكتور/ أحمد معبد عبد الكريم، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م.
- أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم، سعيد محمد بابا سيلا، دار ابن الجوزي، ت ط/ ٢٠٠٠م.
- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف – بيروت.
- بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق: محمد بن علي الصامل، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣١ه/ ٢٠١٠م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.
- تأملات دعوية في خطب الأنبياء وأتباعهم"، أ. د/ فرج محمد الوصيف، وما بعدها، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.
- تفسير الشعراوي – الخواطر"، فضيلة الشيخ/ محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

• تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

• التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج"، د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ.

• تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م.

• التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

• جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م.

• الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - ﷺ - وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق د/ مصطفي دبب البغا، دار ابن كثير - بيروت - ط الثالثة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م .

• الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. علي حسن ناصر، د. عبد العزيز إبراهيم العسكر، د. حمدان محمد، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤ه.

• دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى عليه السلام "، طاهر أحمد محمد الريامي، مج ٤ - ع١٤ مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الأندلس للعلوم والتقنية، اليمن، يونيو ٢٠١٧م.

• الرد على المنطقيين، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار المعرفة - بيروت.

• روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

• السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م.

• صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ .

• الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م.

• فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ.

• الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

• مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

• مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م.

• المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد

الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

• المستفاد من تاريخ الدعوة إلى الله قديمًا وحديثًا"، ا.د/ فرج محمد الوصيف، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ، ٢٠١١م.

• مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ م.

• مع الأنبياء في القرآن الكريم.. قصص ودروس وعبر من حياتهم"، عفيف عبد الفتاح طبارة، وما بعدها، دار العلم للملاين، لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، ١٩٨٥ م.

• مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

• منهج القرآن في دحض شبهات الملحدين"، أفنان أحمد الغماس، مركز دلائل، الرياض، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث باللغة العربية:	١٨٣٧
ملخص البحث باللغة الإنجليزية:......................................	١٨٣٨
مقدمة	١٨٣٩
حد الدراسة:	١٨٤٠
بواعث الكتابة في الموضوع:..	١٨٤٠
السوابق البحثية والإضافة المعرفية المنشودة:.........................	١٨٤١
المنهج العلمي المتبع في الدراسة:	١٨٤٢
خطوات العمل:	١٨٤٢
خطة البحث:...	١٨٤٢
تمهيد...	١٨٤٤
المحور الأول: لماذا قصة موسى عليه السلام؟	١٨٤٤
المحور الثاني: فائدة تكرار قصة موسى عليه السلام في سور كثيرة:	١٨٥١
المحور الثالث: لمحة عن واقع الأرض قبل وبعد ولادة موسى عليه السلام	١٨٥٤
المبحث الأول مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من ميلاد موسى عليه السلام إلى عودته إلى أمه	١٨٥٨
المبحث الثاني مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من بلوغ موسى عليه السلام أشده إلى تكليفه بالرسالة	١٨٧١

المبحث الثالث مظاهر التدبير الرباني للشأن الدعوي والتدافع الإصلاحي في الفترة من التكليف بالرسالة إلى هلاك فرعون وجنوده	١٨٩٠
خاتمة البحث	١٩٤١
فهرس المراجع	١٩٤٥
فهرس الموضوعات	١٩٤٩

بحمد الله تم